مينايف

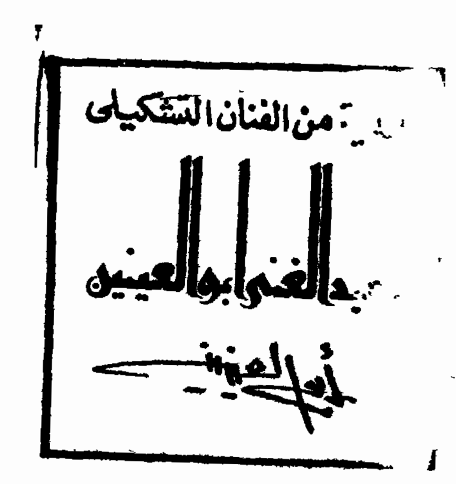
نشوء الاشتراكية العلمية ومبادئها

Sp
32
M6

الى القراء

ان دار التقدم تكون شاكرة لكم اذا تفضلتم وابديتم لها ملاحظاتكم حول موضوع الكتاب وترجمته، وشكل عرضه، وطباعته، واعربتم لها عن رغباتكم.

العنوان: زوبوفسكي بولفار، ٢١،
موسكو – الاتحاد السوفييتي



ميناييف

■

نشوء الاشتراكية العلمية ومبادئها

عرض مختصر

■

دار التقدم
موسكو

مقدمة

خلال قرون عديدة راود الشعب الرازح تحت نير الاستغلال والحاجة والعوز الحلم بحياة حرة سعيدة. حلم الناس بزوال الظلم، واستعباد الانسان للانسان، وبأن يكون الجميع متساوين فيما بينهم، وبأن تعود كل الثروات وكل ثمار العمل الانساني للشغيلة انفسهم، وبأن تكون ثمة وفرة في الخيرات المادية.

فكيف يحقق الناس حلمهم، وبأية الطرق يصلون الى حياة أفضل؟ ظل الناس زمنا طويلا يجهلون ذلك. ولم تستطع الاجابة على هذا السؤال الا الاشتراكية العلمية التي حلت محل الاشتراكية الطوباوية غير العلمية التي لم تتجاوز الحلم بمجتمع المستقبل. لقد حوّل كارل ماركس (١٨١٨-١٨٨٣) وفريدريك انجلس (١٨٢٠-١٨٩٥) وفلاديمير ايليتش لينين (١٨٧٠-١٩٢٤) الحلم القديم

بالمجتمع السعيد، مجتمع السلام والعمل والحرية والمساواة، الى نظرية علمية واشاروا الى الطرق الواقعية نحو الهدف المنشود، والى تلك القوى الثورية القادرة على تهديم العالم القديم، وبناء مجتمع اشتراكي جديد.

ان الاشتراكية العلمية هي علم عن الثورة الاشتراكية وعن طرق بناء المجتمع الاشتراكي. والاشتراكية العلمية اذ تستند الى استنتاجات المادية التاريخية وتعاليم ماركس الاقتصادية تسلح الشغيلة بمعرفة قوانين الكفاح التحرري، وتحدد الطرق المدعومة بالعلم لانتقال المجتمع الى الاشتراكية.

وفي عصرنا لم تعد الاشتراكية نظرية وحسب. فان علم بناء الاشتراكية قد جربته اقطار العالم الاشتراكي بخبرتها. لقد حطمت شعوب الاتحاد السوفييتي، مسترشدة بنظرية الاشتراكية العلمية، ولاول مرة في تاريخ الانسانية، اصفاد العبودية الرأسمالية، وبنت الاشتراكية، وصار للانسانية مجتمع اشتراكي محقق واقعيا. وبعد الحرب العالمية الثانية انتصرت الثورات الاشتراكية ايضا

في عدد من اقطار اوروبا وآسيا. وفي يومنا هذا ترفض شعوب اقطار جديدة وجديدة وبحزم متعاظم النظام الاستغلالي، وتنحاز الى الاشتراكية.

في الفصول الأولى من هذا البحث عرض مختصر لتاريخ الفكر الاشتراكي، ومقدمـات الاشتراكية العلمية. الا أن القسم الأكبر من الكتاب مكرس لعرض أهم مبادئ الاشتراكية العلمية (الفصول عن الرسالة التاريخية العالمية للطبقة العاملة، وعن الثورة الاشتراكية وعن الاشتراكية والشيوعية). وعولجت، بالقدر الذي سمح به حجم البحث المحدود، الخبرة المتكونة لحد الآن في بنـاء المجتمع الجديد. ويتضمن فصل «تعاليم الاشتراكية والشيوعية» قسما عرضت فيه نظرية الاشتراكية العلمية عن قوانين استبدال العلاقات الانتاجية لما قبل الرأسمالية بالعلاقات الاشتراكية.

الناشر

١ ـ اسطورة العصر الذهبي

كان زمن آمن ناس العمل فيه باسطورة العصر الذهبي التي زعمت بأنه ولّى في الماضي دون أن يترك أثرا. ان الاسطورة القائلة بأن الحياة السعيدة كانت في زمن ما على الارض، ثم حل محلها الحكم القاسي للشر والعنف قد ولدت في مجتمع الرق حين ظهر لاول مرة مضطهِدون ومضطهَدون وانقسم المجتمع الى طبقات متناحرة.

لقد رسم الناس الذين ثقلت عليهم قيود العبودية صورة لأنفسهم عن حياة لا همّ فيها مفعمة بكل الخيرات للناس الاوائل حين كانت الارض تقدم بنفسها كل ما هو ضروري دون فلاحة. وقد عبر هذا الحلم عن الشعور بالجزع، ذلك الشعور الذي تولده اثقال الحياة في ذلك العصر. كان ذلك حلما بالعودة الى الوراء، وهو أمر غير قابل للتحقيق لأن تاريخ المجتمع الانساني ككل يسير دائما في طريق صاعد، نحو التقدم.

ونقل الناس الحياة السعيدة، وكأنهم قد أحسوا بذلك، من عالم الواقع الى مملكة الاسطورة، والخيال. وتكونت اساطير كثيرة في العالم القديم عن بلاد سعيدة لم يعرف أحد قط السبيل اليها، ولم يكن في الامكان الوصول اليها الا بمعجزة. وظهرت اساطير عديدة عن حياة رائعة بلا مشاغل وبلا هموم زعمت أن الناس استمتعوا بها في زمن ما، الا أنها اختفت فيما بعد دون أن تترك اثرا.

واصبحت اسطورة الفردوس المفقود جزءا اساسيا للايديولوجية في عصر الرق، ثم في المجتمع الاقطاعي. وكانت تدل على عجز وعناء الشغيلة، وتعبر عن احتجاجهم غير النشيط على ظروف الحياة التي لا تطاق.

رسمت الحكايات عن العصر الذهبي صورا خيالية للحياة المتحررة من كل عمل، حيث كان الناس يحصلون على هبات الطبيعة بوفرة، والارض تحمل لهم كل شيء بنفسها، وحيث تجري انهار الحليب والعصير الحلو، والعسل الذهبي يسيل من الاشجار، والطبيعة في ربيع دائم.

وفي الواقع ان الناس في الزمن الاول من

حياتهم، الزمن الذي تنسب اليه الاساطير وجود ما يسمى بالعصر الذهبي كانت تسحقهم مصاعب الكفاح مع الطبيعة، وكانوا عاجزين امام اخطار ظواهر الطبيعة الغريبة عليهم، وغير المفهومة لهم. واسطورة العصر الذهبي تناقض الحقيقة.

وحين ظهرت المعلومات الأولى المؤكدة الى هذا الحد او ذاك عن الشكل البدائي للحياة عجزت اسطورة الفردوس المفقود عن الصمود امام النقد.

ونجد في مؤلفات المفكرين الماديين القدامى الاغريقيين والرومان، الذين عاشوا قبل الفي سنة التماعات لافكار علمية، وحدوسا صادقة عن التطور الاجتماعي. فنحن نرى الشاعر والعالم الروماني تيتوس لوقراسيوس كاروس (عاش في القرن الاول قبل الميلاد) البراعم الأولى لهذه الحدوس عن تاريخ المجتمع، واول تعبير فيه سذاجة كبيرة عن فكرة التطور ونظرية الارتقاء من الاشكال السفلى الى الاشكال العليا من الحياة الاجتماعية. واخضع المفكرون الماديون القدامى للنقد اسطورة العصر الذهبي في طرحهم لفكرة التطور. وذكروا أن الانسانية قد قطعت حتى عصرهم طريقا طويلا مكتسبة كثيرا من المعارف والمهارات.

ولكنهم لم يستطيعوا، وهم يصمون الماضي كعصر الوحشية والبربرية، أن يتبصروا بمصير الانسانية التالي، وكان افقهم محدودا بالحدود الضيقة للعلاقات القائمة على العبودية. ولم يكونوا يعرفون الى أين يسير تطور المجتمع فيما بعد. ولم تخرج احلام الفيلسوف المثالي القديم افلاطون (٤٢٧-٣٤٧ قبل الميلاد) عن بنـــاء اجتماعي أفضل خارج اطار ملكية العبيد، ولم يهتم الا بتحسين العلاقات داخل الطبقة المالكة للعبيد، لا بوضع غالبية الناس الهائلة ـ العبيد والحرفيين والمزارعين.

ومرت قرون حتى استطاع الفكر الاجتماعي المتقدم القول بان العصر الذهبي ليس الى الوراء بل الى الامام، ويجب السعي اليه، والكفاح في سبيله، دون انتظار المعجزة، ودون الاعتماد على قوى خارقة للطبيعة.

وكان على ماركس وانجلس ولينين أن يخوضوا نضالا ضد النظرية الزائفة الزاعمة بأن عوز الشغيلة المتزايد في المجتمع الرأسمالي راجع الى أن الطبيعة تقصر عن تقديم ثمراتها للسكان المتزايدين من عام الى عام. ان مؤلفي هذه النظرية المالتوسيين (نسبة الى مالتوس

الاقتصادي الانجليزي البرجوازي القس (١٧٦٦–١٨٣٤)، اول من طرح هذه الفكرة) دافعوا عن مصالح البرجوازية مهاجمين الاشتراكية العلمية التي دلت الانسانية على طريق السعادة. وعادوا الى الاساطير القديمة عن العصر الذهبي زاعمين أنه غادر الانسانية عند عتبة التاريخ.

كتب لينين في بداية قرننا انه لم يكن هناك أي عصر ذهبي وراءنا. ان المستقبل المشرق الى الامام – انه مجتمع بلا طبقات ولا استغلال الانسان للانسان، ذلك الاستغلال الذي كان موجودا طوال تاريخ تطور الانسانية. وقد كسبت الانسانية العاملة نظرية الاشتراكية العلمية في النضال الطويل ضد المستثمرين.

واليوم يعود بعض الايديولوجيين من جديد الى طرح النظرية الزاعمة بأن العصر الذهبي بقي في الماضي. وهم يعلنون ان الشعوب المتحررة من الاضطهاد الاستعماري يجب أن تعود الى انظمة عهد ما قبل الاستعمار، أن تسير الى الخلف لا الى الأمام. وهم يزوقون الماضي، ومخلفات نظام الأبوة في العلاقات الاجتماعية لهذه الشعوب. ويزعم مثل هؤلاء

الايديولوجيين ان التخلف الاجتماعي الاقتصادي والانتاجي-التكنيكي لاقطار آسيا وافريقيا ليس نقيصة، ولا مصيبة، بل امتيازا لها امام المجتمعات الاخرى.

ان انصار مثل هذه الآراء ينطلقون من بواعث مختلفة. ففريق منهم يعكس في امزجته الاحتجاج ضد الحكم الاستعماري، والرغبة في الكفاح من اجل استقلال واصالة شعب بلاده، الا أنه لا يرى الطريق الصحيح نحو ضمان الاستقلال الثابت، وبناء مجتمع افضل. وفريق آخر يغطي بنظرية العصر الذهبي في الماضي مآربه الرجعية والاستغلالية، وتلهفه الى الاتفاق مع الامبرياليين والاقطاعيين، أو شوفينيته وعنصريته.

الا أن هذه النظرية، بغض النظر عن الرغبات الذاتية للواعظين بها، انما هي في معناها الاجتماعي، نظرية رجعية ارتدادية تعيق التقدم نحو مجتمع الحرية والسعادة والمساواة، وهي تقوض صداقة واخوة الشعوب. وأية محاولة للعودة الى القديم تفشل حتما جالبة الى الشعب حرمانا ونكبات وآلاما كان من الممكن أن يتجنبها. ولا تستطيع الانسانية

ككل، ولا أي جزء منها أن تتخلى، ولا تريد أن تتخلى عن مكاسبها، عن المنجزات المادية والروحية للحضارة. وليس في وسع أي شعب ان يبقى بمعزل عن الحركة العامة للانسانية نحو الاشتراكية. ان شعوب آسيا وافريقيا تسعى، قبل كل شيء، الى أن يسير التطور الاجتماعي-الاقتصادي والثقافي في اقطارها باسرع ما يمكن من الوتيرات، وأن تتغلب على التخلف القديم في أقصر مدة تاريخية.

٢ ـ المقدمات الفكرية لنشوء نظرية الاشتراكية العلمية

الاشتراكيون الطوباويون الاوائل

في عهد انحدار الاقطاعية في اوروبـــا ظهرت مؤلفات تعرّض فيها نظام الاستغلال والاضطهاد الى نقد شديد، وعكست فيها آمال الشعوب في حياة افضل، ومستقبل سعيد. وقد وصف مؤلفوها جزيرة خيالية واقعة في قلب المحيط، او مدنا بعيدة لها حكام حكماء عادلون. ونفذ الى عدد من هذه المؤلفات الحلم بالعدالة الاجتماعية والمساواة في الملكية،

وانعكست فكرة الشيوعية السوائية، وفكرة التوزيع العادل لجميع الخيرات كمثل أعلى للعلاقات الاجتماعية.

ووصف الكاتب والفيلسوف الانجليزي توماس مور (١٤٧٨-١٥٣٥) في كتابه «اوتوبيا» صورة لحياة الناس المثلى على جزيرة اوتوبيا التي لم يرها أحد (وتعني باليونانية «المكان الذي لا وجود له»). ولما كانت الاوضاع التي اصبحت فيما بعد صفات لمجموعة كاملة من المفكرين قد تشكلت لاول مرة في كتاب توماس مور «أوتوبيا» فان تعاليم توماس مور واتباعه سميت بالاشتراكية الاوتوبية أو **الطوباوية**. والآن تستخدم كلمة «طوباوي» كمرادف لكلمة «غير علمي»، وعند التحدث عن الاشتراكية الطوباوية نعني دائما الاشتراكية غير العلمية المعاكسة لاشتراكية ماركس وانجلس ولينين العلمية. وقد توصل توماس مور الى استنتاج هو أن مساواة الناس وسعادتهم مستحيلة وحق الملكية الخاصة باق، والثروة الاجتماعية في ايدي قلة، وجماهير الشعب محكوم عليها بالفقر. وليس في جزيرته اوتوبيا ملكية خاصة ولا نقود. والاعمال تجري بشكل جماعي،

وكل الناس يعيشون بعملهم الذي هو الزام لكل المواطنين. وكل ما ينتجه سكان الجزيرة يوضعونه في مخازن عامة دون أية مكافأة نقدية، ويأخذون منها كل ما هو ضروري لهم مجانا.

وجرت المحاولة الثانية لتقديم تخطيط لتنظيم المجتمع بلا ملكية خاصة، في بداية القرن السابع عشر من قبل المفكر الايطالي تومازو كامبانيلا (١٥٦٨— ١٦٣٩) في كتابه «مدينة الشمس».

لقد كتب مور وكامبانيلا مؤلفين لامعين عن النظام الاجتماعي الافضل، الا أنهما لم يكونا على يقين من أن مثل هذا النظام سيسود بالفعل على الارض. ولم يتمثل البناء الاجتماعي الافضل لهما كمرحلة طبيعية في تطور الانسانية.

الفلاسفة الفرنسيون في القرن الثامن عشر

في القرن الثامن عشر ظهرت فكرة قانونية التطور التقدمي للمجتمع الانساني: وقد نادى بها ايديولوجيو البرجوازية الصاعدة الذين رفضوا النظام الاقطاعي الشائخ. ومع ذلك فان هؤلاء الايديولوجيين

لم يفكروا بان النظام البرجوازي ايضا لا بد من أن يخلفه نظـــام اجتماعي أرقى، ولم يكن في نظرياتهم مكان لنظام سيقضي على الملكية الخاصة. فقد اعتبروا نظام الملكية الخاصة بالذات اكثر الانظمة تقدما.

وطوّر الفيلسوفان الفرنسيان ديدرو (١٧١٨-١٧٨٤) وهولباخ (١٧٢٣-١٧٨٩) وغيرهما نظرية برجوازية للتقدم. وقالوا أن عملية تطور الانسانية لا حدود لها، ويظهر التقدم في نجاحات العلم والتنوير، وفي زوال الخرافات والاهواء التي تتخلى عن الطريق للعقل المنتصر على الظلمة. هذه هي الفكرة الاساسية لهؤلاء الفلاسفة. لقد اظهروا مدى أهمية العلم والمعرفة بالنسبـــة لتطور الانسانية، فهما يساعدانها على اخضاع الطبيعة. الا أن هؤلاء المفكرين لم يروا الشيء الرئسي، لم يدركوا أن اساس كل الروابط الاجتماعية انما هو انتاج الخيرات المادية وتلك العلاقات التي يدخل الناس فيها اثناء عملية الانتاج.

والى جانب التكامل الروحي يشمل التقدم، حسب رأيهم، تطور المؤسسات السياسية التي تصوروها من صنع الناس. وهكذا جردت الدولة من هالة الأصل الالوهي، تلك الهالة التي خلقتها القرون الوسطى.

ومع ذلك فان انصار فكرة القوة العظيمة للفكر العلمي القاهر للعالم قلما تحدثوا عن التنظيم الاجتماعي للمجتمع. فقد كان كلامهم يجري حول تلطيف الاخلاق وتحسين التنظيم السياسي، وفي جوهر الامر، حول استبدال سلطة اصحاب الاطيان بالسلطة البرجوازية التي صوروها بشكل مثالي.

مكافحون من اجل المساواة العامة

ولكن في القرن الثامن عشر ايضا كانت ثمة عقول جريئة سعت الى التطلع الى الامام، خارج حدود المجتمع البرجوازي الذي توطد، وجلب الويلات الفظيعة للجماهير الشعبية. وقد نادى هؤلاء المفكرون المتقدمون بفكرة المساواة في الملكية، واقامة مجتمع شيوعي كان في نظرهم نظاما يتجاوب مع «طبيعة الانسان».

وكتب الكاتب الفرنسي موريلي (سنتا مولده ووفاته غير معرفتين) مشاريع قوانين مجتمع المستقبل محاولا أن يطور فيها افكار مور وكامبانيلا. وتتحدث هذه المشاريع عن مجتمع الغيت فيه الملكية الخاصة، وضمن فيه حق المواطنين في العمل. وكتب موريلي

ان كل مواطن سيسهم من جهته بفائدة اجتماعية وفق قواه ومواهبه وعمره. وهذه صياغة اولية لأحد المبادئ الاساسية للاشتراكية تقول عن عمل كل انسان وفق مقدرته. ومال موريلي ايضا الى فكرة ضرورة التوزيع وفق الحاجة. وقد عرضت ايضا الاحلام بنظام جديد بلا مضطهدين ومضطهدين في مؤلفات المفكرين الفرنسيين جان موليه (١٦٦٤ـ ١٧٢٩) وجبريل مابلي (١٧٠٩ـ١٧٨٥).

كان موريلي وموليه ومابلي المبشرين النظريين بالحركة الشيوعية التي ظهرت في زمن الثورة الفرنسية الكبيرة، المبشرين بـ «مؤامرة المتساوين» التي كان قائدها غراكس بابوف (١٧٦٠ـ١٧٩٧) المعبر عن مطامح فقراء باريس. وقد رأى «المتساون» بوضوح عواقب السلطة للبرجوازية، وخاب ظنهم في الديموقراطية البرجوازية، وفهموا ان الثورة الفرنسية قد استبدلت مستثمرين بمستثمرين آخرين. فقال بابوف انه يجب الاستمرار في الثورة حتى تصير ثورة شعبية. وحلم «المتساون» باقامة ديكتاتورية ثورية من شانها أن تحقق اعادة تنظيم المجتمع على اسس شيوعية. ان انتصار

ثورة الفقراء، حسب رأي اتباع بابوف، يجب أن يؤدي بهم الى اقامة مساواة فعلية عن طريق تطبيق الملكية الاجتماعية. وجميع الناس ملزمون على العمل، ولا وجود لاغنياء وفقراء، ولا يحق لأحد أن ينتزع ملكية.

ومع ذلك فان افكار اتباع بابوف عن المساواة كانت بدائية. فكثيرا ما ابخسوا قيمة العمل المعقد العالي الكفاءة، والتعليم، والفن والعلم. ولم يدركوا الدور التاريخي العظيم للتقدم الثقافي، وضرورة خلق ظروف لتطوير وتحسين امكانيات ومواهب اعضاء المجتمع، وضرورة خلق وفرة من الخيرات المادية وارتفاع مطرد في المستوى المادي والثقافي لحياة الشعب. ولم يفهم اتباع بابوف الدور التاريخي للبروليتاريا، وتصوروا المجتمع المقبل مجتمعا زراعيا في الغالب – فلم يكونوا قادرين على فهم الاهمية التاريخية لتطور الصناعة. والتاكتيك التآمري الذي اتخذوه وصلتهم الضعيفة بالجماهير قد اديا بهم الى الهزيمة والزوال. فلم يستطيعوا، رغم كل بطولتهم واخلاصهم للشعب، أن يقوموا بعمل فعلي لتحقيق خططهم.

وهكذا اقترب الفكر الاجتماعي في القرن الثامن

عشر من صياغة عدد من أهم مبادئ الاشتراكية. ولكن لم تحل مسألة موعد وسبب حلول النظام الاجتماعي الجديد الذي سيكون قانونه الملكية الاجتماعيـة، وعمل كل انســان وفق مقدرته، والتوزيع وفق احتياجاته. ولم يمثل هذا النظــام كنتيجة طبيعية لتطور المجتمع. فقد كان مجرد حلم.

مصادر الماركسية

في بداية القرن التاسع عشر ظهرت تعاليم اكبر رجال الفلسفة والاقتصاد السياسي والاشتراكية التي كانت مقدمات نظرية لظهور نظرة الى العالم جديدة علمية حقــا. ولكن حتى هذه التعاليم اكتفت بطرح أهم المسائل الاجتماعية. ولم يكن من الممكن الجواب عليها الا على اساس التحليل المادي العلمي لكل التاريخ السالف. وهذا ما فعله مؤسسا الاشتراكية العلمية ماركس وانجلس.

ان تعاليم ماركس وانجلس، كمـا أكد لينين في مؤلفه «مصادر الماركسية الثلاثة واقسامها المكونة الثلاثة» ليست تعاليم مقفلة ظهرت بمعزل

عن الطريق الرئيسي لتطور الحضارة العالمية: «انها الوريث الشرعي لخيرما ابدعته الانسانية في القرن التاسع عشر: الفلسفة الالمانية والاقتصاد السياسي الانجليزي، والاشتراكية الفرنسية» *.

الفلسفة الالمانية
في النصف الاول من القرن التاسع عشر

كان الفيلسوف المثالي الالماني هيغل (١٧٧٠–١٨٣١) الممثل الأبرز للفكر الفلسفي لتلك الفترة. فهو الذي أسس المذهب الدياليكتيكي عن التطور كعملية متواصلة لظهور الجديد، واضمحلال القديم، عملية صعود من الإسفل الى العالي. وقد كان يبرهن هيغل على أن التناقضات في كل مكان، وفي كل شيء تخلق الحركة، والتغيرات الكمية البطيئة تسبب الطفرات التي تتغير معها النوعيات. وعمّم هذا الفيلسوف الالماني وطوّر كثيرا من الافكار التي عبرت عنها العقول المتقدمة للانسانية حتى في عهد مفكري

---

* لينين. المختارات في ثلاثة مجلدات. المجلد ١، الجزء ١، ص ٧٩. الطبعة العربية، موسكو.

اليونان القدامى قبل الفين واكثر من السنين. وكانت هذه نزعات تقدمية في فلسفة هيغل.

الا ان هيغل اعتبر الفكر، الروح، المحرك والاساس لكل عملية التطور. فبعد أن طرح افكار ثورية من حيث الجوهر لم يستخلص من نظريته في التطور استنتاجات ثورية، وليس هذا فحسب بل وقف يدافع عن النزعة المحافظة. فهو على النقيض من روح نظريته ذاتها لم يعتبر المعرفة والعملية التاريخية تتطوران بلا نهاية. بل بالعكس رأى هيغل «نهاية» ارتقاء تطور المعرفة وتاريخ العالم. واعلن فلسفته كحقيقة مطلقة لا بد من أن يتوقف الفكر الفلسفي للانسانية عن التطور بعد استيعابها.

حاول هيغل أن يطبق الفكرة الدياليكتيكية للتطور على التاريخ الذي صوره كسلم فريد يفضي بالانسانية الى كمال روحي متعاظم. الا أنه في آخر المطاف ضيّق الامر الى حد أن تطور المجتمع انتهى بالملكية البروسية الرجعية في المانيا التي كان في خدمتها. فقد امتدح هيغل هذه الملكية كـ «خاتمة» كل التطور التاريخي. وكانت افكار الاشتراكية، بالطبع، غريبة على هيغل تماما.

كما ترك فيلسوف الماني آخر هو لودفيغ فورباخ (١٨٠٤ـ١٨٧٢) اثرا عميقــا في تاريخ الفكر الفلسفي. فقد انفصل عن مثالية معلمه هيغل، وطور احسن تقاليد مادية القرن الثامن عشر. ولكن فوربـاخ لم يتمكن من تقدير اهمية طريقة هيغل الدياليكتيكية، ولم يتمكن من تطبيق الفلسفة المادية في حقل التاريخ والمجتمع الانساني.

الا انه، بالرغم من ذلك، احتوت فلسفة هيغل وفورباخ على مقدمات فكرية معينة لظهور النظرية الفلسفية الثورية. غير ان هذه لم تكن الا مقدمات لم يستطع أن يراها ويقدرها بانصاف، ويعيد وضعها بابداع، ويطورها فيما بعد بعبقرية الا زعماء الطبقة العاملة العظام: ماركس وانجلس ولينين.

الاقتصاد السياسي الكلاسيكي الانجليزي

كما احتوت مؤلفات بعض العلماء الانجليز الذين درسوا ظروف الحياة المادية للانسانية على مقدمات لظهور النظرية الثورية ايضا، رغم ان هؤلاء

العلماء كانوا بعيدين عن الاشتراكية، وبرجوازيين في نظراتهم ووضعهم في المجتمع. الا أن نجاحاتهم في دراسة حقل معين من نشاط الناس الاجتماعي - الانتاج وميدان علاقات التبادل - قد ادت الى ظهور علم الاقتصاد السياسي.

وادى وضع الاقتصاد السياسي فيما بعد الى اكتشاف الطبقات، والبناء الاجتماعي للمجتمع وتعريف بعض المراحل لتطور الانسانية الاقتصادي.

في القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر تطورت مدرسة الاقتصاد السياسي البرجوازي الكلاسيكية التي كان العالم الانجليزي آدم سميث (١٧٢٣-١٧٩٠) أبرز ممثل لها. وقد طرح علماء هذه المدرسة افكارا صادقة: اعلنوا ان العمل هو مصدر الثروة الاجتماعية كلها، ووضعوا نظرية القيمة التي بموجبها تحدد القيمة بمقدار العمل المقاس بالزمن. ولاحظوا عن حق أن تبادل البضائع هو، في التحليل الاخير، تبادل النشاط العملي. ونظر آدم سميث الى ربح الراسماليين كحصيلة عمل غير مدفوع للعمال المأجورين.

الا أن آدم سميث، وابن وطنه دافيد ريكاردو

(١٧٧٢-١٨٢٣) والممثلين الآخرين للمدرسة الكلاسيكية للاقتصاد السياسي البرجوازي لم يكشفوا عن جوهر العلاقات الرأسمالية، واعمق التناقضات الملازمة للرأسمالية، ولم يحللوا علاقات الناس التي استقرت في مجتمع يسود فيه الرأسمال. وقسم آدم سميث المجتمع الرأسمالي الى ثلاث فئات: العمال، والرأسماليين، والمزارعين. وأجر العمل والربح والريع هي اشكال دخول كل فئة منها. الا أن آدم سميث لم يرتفع الى تحليل العلاقات الطبقية والنضال الطبقي.

ضيق افق الفكر البرجوازي

كما ان ممثلي المدرسة الانجليزية للاقتصاد السياسي لم يفكروا بالقضاء على النظام الرأسمالي. بل بالعكس، بدا هذا النظام لهم نظاما طبيعيا اكثر ملاءمة لطبيعة الانسان. غير انهم قاموا بالخطوات الاولى في طريق التحليل العلمي للرأسمالية، فظهرت، تبعا لذلك، مقدمات لنقدها.

واعترف أحسن المؤرخين الفرنسيين في بداية القرن التاسع عشر جيزو وتيري ومنيه أن في تاريخ

المجتمع يوجد نضال طبقي. فكانت هذه خطوة كبيرة الى الامام بالقياس الى نظرات المستنيرين في القرن الثامن عشر والفيلسوف هيغل الى التاريخ. ولم تكن المعارك العظيمة للثورة الفرنسية بلا جدوى لمفكري البرجوازية، فأخذوا يتحدثون عن النضال الطبقي. الا أن هذا النضال قد انتهى عندهم باقامة الانظمة البرجوازية. واعتبر جيزو وتيري ومنيه النظام الرأسمالي الاستغلالي طبيعيا ولهذا فهو خالد.

لقد رأينا فيما تقدم ان الفيلسوف هيغل المنادي بنظرية التطور سمم هذه النظرية بسم المثالية، بل والميتافيزيـــا بعد ان اعلن ان تطـور الدولـة ينتهي بتأسيس المَلَكية البروسية المطلقة.

وركن الفكر التقدمي للبرجوازية الى نظام المجتمع الاستغلالي، وكأنه في مازق، ولم يرد أن يرى اكثر. وسعت البرجوازية الى تصوير النظام الرأسمالي مع اوضاعه الجائرة وتناقضاته الطبقية والصراع بين القوميات كنظام خالد موافق ا «حاجة العقل الخالد» و«الطبيعة» ولأوامر «الروح المطلق».

وفي نحو منتصف القرن التاسع عشر أصبحت البرجوازية في اوروبا الغربية وفي اميركا الشمالية بعد

أن توصلت الى السلطة ترفض التقدم الاجتماعي. فان نمو البروليتاريا، ودخولها في الميدان السياسي قد بثا في البرجوازية القلق على خلود سيطرتها الاجتماعية، وكما قال الاشتراكي الفرنسي البارز بول لافارغ (١٨٤٢-١٩١١)، فقد التقدم سحره في عينها.

الاشتراكيون الطوباويون البارزون
سان سيمون وفوريه واوين

لم تظهر الرأسمالية في اوروبا واميركا الشمالية في حلة العيد التي ألبسها لها الفلاسفة والاقتصاديون والمؤرخون البرجوازيون. لقد حكمت على الشغيلة بالعوز القاسي، وعذبتهم بالعمل الشاق في المعامل. وسرعان ما بدأت الاضرابات - المعارك التاريخية الاولى للبروليتاريا ضد حكم «الجراب الذهبي».

ورأى المفكرون المتقدمون أنه لا يكفي التحدث فقط عن التقدم الروحي، وتقدم العلم والنصر النهائي للتعليم. كما كان من غير الممكن الاقتناع بنظريات التقدم السياسي الممجدة لاستبدال الانظمة الاقطاعية

بانظمة اجتماعية جديدة، والمثبتة لسلطة البرجوازية. ومع تطور العلاقات الاجتماعية والنضال الطبقي برزت بشكل حتمي مشكلة التقدم الاجتماعي.

فهل ستظل الانسانية الى الابد منقسمة الى فقراء واغنياء، الى مضطهدين ومضطهدين؟ أحقا ان طوباويا مفكري القرون ما بين القرن السادس عشر والثامن عشر عن مساواة الناس، وسيادة الملكية الاجتماعية ليست الا حلما لا ينال؟ أحقا ان التنظيم الاجتماعي للمجتمع البرجوازي هو حد في التطور الاجتماعي يجب أن يتوقف هذا التطور عنده؟

حاول الاشتراكيون الطوباويون البارزون في بداية القرن التاسع عشر - الفرنسيان هنري سان سيمون وشارل فوريه، والانجليزي روبرت أوين - أن يجيبوا على هذه الاسئلة. لقد أكدوا أن الانسانية تتطور نحو مجتمع جديد سيكون فضيلته الاساسية العمل لا الربح والمنفعة. وبدلا من استغلال الانسان للانسان سيأتي زمن يتعاون فيه الجميع باسم سيادة الناس على قوى الطبيعة. عند ذلك يسود، في آخر الأمر، العدل الاجتماعي. ان التقدم خالد، وسيكف عن

الاندفاع كامواج المد والجزر، وسيخدم البناء الاجتماعي تقدم الانسانية الذي لا نهاية له ولا حدود.

وهكذا لم تعد نظرية التقدم مجرد نظرية التطور الروحي او السياسي، وتحولت الى نظرية للتقدم الاجتماعي. ومنذ ذلك الحين اندمجت المعارف الحقيقية عن المجتمع الانساني بشكل لا انفصام له مع الافكار العظيمة للاشتراكية. ومن ذلك الحين لم يكن من الممكن ان توجد نظرية للتقدم تترك جانبا مسألة البناء المقبل للمجتمع الانساني.

الا أن في بداية القرن التاسع عشر لم تتكوّن بعد الظروف الحقيقية لظهور النظرية العلمية لنضال البروليتاريا الثوري. فقد كان الانتاج الرأسمالي نفسه ضعيف التطور، ولم تكن العلاقات الطبقية للمجتمع البرجوازي ناضجة بشكل كاف. ولهذا فان الاشتراكيين الطوباويين العظام في بداية القرن التاسع عشر لم يكونوا يعرفون بعد الطريق الى المستقبل، وبقيت الاشتراكية عندهم حلما، طوباويا، ايضـــا. الا انهم اعلنوا بصوت عال انه على الانسانية ان تسير نحو النظام الاجتماعي الجديد.

«ان العصر الذهبي الذي نسبته الاسطورة العمياء الى الماضي، انما هو في المستقبل أمامنا» — بهذه الكلمات بدأ الاشتراكي الطوباوي الفرنسي المشهور هنري كلود سان سيمون (١٧٦٠ ـ ١٨٢٥) واحدا من أهم مؤلفاته «ابحاث ادبية وفلسفية وصناعية». ان العصر الذهبي الحقيقي للانسانية يبدأ عندما سيخلق تنظيم اجتماعي هو الاكثر منفعة للغالبية الكبرى، وهو في الوقت نفسه سيكون الاكثر ملاءمة لتطور جميع مواهب الانسان. وفي مجتمع يسود فيه الربح الفظ لا يمكن تلبية حاجات غالبية الناس وتأمين تطوير كفاءاتهم.

ان أحسن بناء اجتماعي هو الذي يجعل حياة الشغيلة، أى الناس الذين يمثلون غالبية المجتمع، على أحسن ما يمكن من السعادة.

لقد قدم سان سيمون نظرية لتقدم الانسانية رائعة بالنسبة لعصره، الا ان الصورة التي رسمها للنظام الاجتماعي المقبل مغبشة جدا. فان في هذا المجتمع لن يكون الا شغيلة، وتتحول وظيفة ادارة الناس الى وظيفة توجيه الاعمال كلها. والهدف الرئيسي للمجتمع هو التلبية المثلى لحاجات جميع

اعضائه. والسلطة المدنية في أيدي «مجلس الصناعيين» والسلطة الروحية تمارسها اكاديمية العلوم.

ولم يعرف سان سيمون ولا أحد من تلامذته في مناداتهم بانتهاء سيادة الطفيلية، وبداية عصر جديد – سيادة العمل – كيف التوصل الى تلك السيادة، ولم يروا الطرق الواقعية الى تحقيق مثلهم. كما لم يقدروا على فهم أهمية اعظم قوة محركة للتاريخ – النضال الطبقي. ولهذا تتصف الصورة التي رسموها للبناء الاجتماعي المقبل بالضبابية. انهم قالوا مثلا، ان الصناعيين هم الذين سيديرون الانتاج. ولكن من هم هؤلاء «الصناعيون»؟ ان انصار سان سيمون يضمون الراسماليين والعمال الى هؤلاء.

وبالرغم من كل تخلخل تعاليم سان سيمون وتلامذته فان هناك اهمية هائلة لفكرة امكانية وجود بناء اجتماعي يعمل كل واحد فيه حسب كفاءاته، ويحصل وفق عمله. وقد اصبح هذا المبدأ مطلبا منهجيا للاشتراكية. كما لا تقل اهمية عن ذلك فكرة سان سيمون عن أن المجتمع بعد تحرره من الاستغلال يكتسب قوى خلاقة هائلة بحيث سيكون

شعاره التطور الشامل للتكنيك والعلم، والسيطرة على القوى الجبارة للطبيعة الموضوعة لخدمة الانسان.

وكتب الاشتراكي الطوباوي الفرنسي العظيم الآخر شارل فوريه (١٧٧٢-١٨٣٧) عدة مؤلفات عن اعادة بناء المجتمع على اسس العدالة الاجتماعية كثيرا ما تمتزج فيها الافكار العبقرية والتقدمية بالنظرات الساذجة وحتى السخيفة.

وقد عرض فوريه للنقد بقوة خارقة الانظمة الاجتماعية للمجتمع الرأسمالي المعاصر له. فالعمل في الانتاج الرأسمالي قسري، والعمال لا تهمهم نتائجه. والعمل يجب أن يكون مسرة وسعادة بينما هو عذاب ولعنة.

وقدم فوريه جملة من الحدوس الرائعة عن القوانين الاقتصادية للرأسمالية، وعواقبها الاجتماعية. يجري تركيز متعاظم لادوات العمل والرأسمال. وهذا التركيز يجعل المجتمع كله تحت سيطرة حفنة من الرأسماليين. ويتحول التنافس البرجوازي الى احتكار، وترتفع فوق المجتمع حفنة من الانانيين اكثر فاكثر. ونتيجة لهذه العملية تهدد المجتمع عودة اقطاعية أكثر فظاعة من الاقطاعية القديمة-هي الاقطاعية

التجاري. وفي الزراعة في نفس الوقت ليست في متناول الفلاحين الصغار الذين يمارسون استثماراتهم المنقسمة منجزات التكنيك ونعم التعاون العملي. وقد اصبح التقدم الاجتماعي وهماً. وتتقدم الطبقة الغنية الى الامام، بينما تظل الطبقة الفقيرة في مكانها. وتنمو الثروة الا أن الفقر لا يقل. ويصبح المضاربون والمحتالون حكام الحاكمين، ويمسكون بايديهم مصير امبراطوريات بكاملها.

وتتعمق الهوة بين الاغنياء والفقراء أكثر فاكثر. ويكونون في حالة حرب. وتتعارض المصلحة العامة مع المصلحة الشخصية. ويعني البناء الاجتماعي القائم حرب كل انسان ضد الجميع والجميع ضد كل انسان، ويصبح الفرد في حالة نضال مستمر مع المجتمع، وسعادة افراد قائمة على بؤس الآخرين، بل وهلاكهم.

واستطاع فوريه أن يزيح ستار الكذب الذي يحاول المدافعون عن الرأسمالية اخفاء الجوهر الفعلي للديموقراطية البرجوازية وراءه. يهتف فوريه ان حقوقا كثيرة موجودة على الورق، ويتحدث الدستور حتى عن حق السيادة العائد للشعب. ولكن من الصعب

الفهم أى صاحب سيادة ذلك الشخص الذي (عند الوفرة العامة من المنتجات في البلاد) لا يوجد عنده حتى خبز، والذي لا يرغب الحكام البرجوازيون الذين يسميهم الدستور «وكلاء» الشعب في ان يضمنوا له حتى الحق في العمل، والحد الادنى من مورد العيش.

ويصل فوريه في تفكيره بقرح الرأسمالية الى ضرورة نظام اجتماعي جديد يقضي على التناقضات الصارخة في النمط البرجوازي للحيـاة، ويخلق انسجاما اجتماعيا. وعبّر وهو يضع نظرية المجتمع المقبل، عن كثير من الافكار المدهشة التي قد تصبح، فيما بعد، اكثر واقعية، الا أن هذه الافكار تُربط كل واحد بواسطة اكثر التنبؤات والمختلقات خيالا.

ومهمة اهمية هائلة حقيقة ان فوريه طرح مسألة تحويل العمل الذي أعلن ايديولوجيو النظام الاستغلالي انه لعنة الانسان، الى متعة. حقا ان المبدأ الذي قدمه فوريه لهذا التحويل كان غير صحيح. فقد قال ان العمل في المجتمع المقبل سيتحول الى تسلية. وفي واقع الامر ان العمل سيصير، وهو صائر في الاقطار الاشتراكية تدريجيا، اول حاجة للانسان، ولن يتحول ابدا الى تسلية

فارغة مثل لعبة الجولف بين الاريستقراطيين المعاصرين ورجال الاعمال.

ويفكر فوريه في الطريقة التي سيقضى فيها على النظام الرأسمالي لتقسيم العمل، ذلك النظام المشوه للشخصية الانسانية، وكيف سيلغى التناقض بين المدن والقرى.

وكل هذه، دون شك، جدارة هائلة للمفكر الفرنسي. الا أن مواصفاته للبناء الاجتماعي المثالي تحمل طابعا طوباويا، وغالبا ما توضع في اساسها فكرة غير صحيحة. فمثلا ان الانسجام الذي يجب أن يحصل في المجتمع سيكون قائما، حسب رأي فوريه، على اشباع الرغبات الانسانية. وفوريه في اعطائه لهذه الرغبات اهمية كبيرة قد اخترع اعوص تصنيف لها.

لقد تصور فوريه البناء الاجتماعي المقبل بسذاجة بالغة: ان المجتمع يصنف وفق عواطف الميل والنفور لاعضائه، وينقسم الى اتحادات اعضاء ـ خلايا تتالف من ١٦٠٠ـ٢٠٠٠ شخص. (ظن فوريه أن هناك ٨١٠ طباع انسانية وفي كل خلية يجب أن يكون هناك ممثلان لكل طبع ولهذا

فان أحسن عدد للخلية هو ١٦٢٠ شخصا، ومثل هذا النوع من الاحصائيات الحسابية موجود في كل صفحة من مؤلفاته تقريبا حين يجري الكلام حول المجتمع المقبل. وفيما بعد سار على هذا المنوال تلامذته الذين «قدروا» أن بعد ٨٠ الف عام سيكون على الارض ٣٧ مليون شاعر و٣٧ رياضيـــا لا يقل عن اتيوتن. وكل خلية تعيش في بناية واحدة هائلة تتجمع فيها ليس فقط البيوت السكنية بل والورش والمطاعم والمكتبات، الخ.. والشكل الاساسي للنشاط العملي الذي سيمارسه اعضاء الخلية هو الزراعة. ولا يشمل النشاط في حقل الصناعة الا ربع مجموع الجهود العملية لاعضاء الخلية.

وتدخل الخلايا فيما بينها بعلاقات تجارية نشيطة، الا أنه لا تقوم فيما بينها رابطة دائمية قوية. فليس للمجتمع تنظيم معين. وهو مجزأ الى هذه الخلايا. وتصور فوريه الانتقال الى النظام الجديد على النحو التالي: يبدأ المجتمع المقبل حياته في تنظيم خلايا منفصلة متفرقة في اماكن مختلفة من

الكرة الارضية، جزر وسط العالم الباقي الذي يواصل حياته على الطريقة القديمة.

وفي نفس الوقت عبّر فوريه عن افكار صادقة عن أن العمل في مقرات الخلايا يجب ان ينظم بحيث يجلب المسرة للانسان، وبحيث لا يكون الناس ملزمين دائما على ممارسة نوع واحد من النشاط، بل بالعكس، أن يكون بوسعهم ان يختاروا ذلك النوع من النشاط الاكثر تلاؤما لكفاءاتهم وميولهم. ويزول في مقرات الخلايا النظام القديم لتقسيم العمل. وفي وسع كل فرد في الخلية أن يتحول من عمل الى آخر. وتجري مباراة بين جماعات منفردة من الكادحين. ويصبح العمل خلاقا، ويظهر فيه حماس الانسان، وتندمج المصالح الشخصية بالمصالح الاجتماعية.

وبما أن فوريه لم ير أن الطريق الى الاشتراكية يمتد عبر النضال الطبقي، وعقد كل آماله على كرم الاغنياء، فقد افترض أن رأسماليين سيدخلون الى الخلايا وسيحملون معهم رؤوس اموالهم لشراء الارض والمعدات. وسيحصلون على نسبة مئوية عالية لقاء رأس المال الذي جلبوه، ويقام لهم نظام خاص ذو

امتيازات (الاغنياء اكثرمن غيرهم ياكلون ويمرحون، ولا يمارسون عملا عضليا ثقيلا، ويصطادون الحيوانات والاسماك، الخ.). ولم يدرك فوريه أن التفاوت الذي أبقي في الخلية يسبب لا محالة ظهور العداء والصراع بين افراد الجماعة.

ومع ذلك فان الاشتراكيين الطوباويين الفرنسيين بالذات، وسان سيمون وفوريه قبل غيرهما وضعوا النظرية الجديدة للتطور الاجتماعي التي كانت بشيرا لظهور مرحلة جديدة في تاريخ الفكر الاجتماعي.

وتركت الاشتراكية الطوباوية اثرها ايضا في تطور الفكر الاجتماعي في انجلترا.

لعب الاشتراكي الطوباوي الانجليزي روبرت أوين (١٧٧١-١٨٥٨) دورا كبيرا في تنوير الطبقة العاملة الانجليزية في النصف الاول من القرن التاسع عشر. فقد انتقد أوين النظام البرجوازي انتقادا شديدا. واعتبر أنه مع انتشار التنوير «سيصبح الناس جميعا يشعرون بالخجل من الدفاع عن وجود هذا القدر المتعدد الانواع من الخطيئة والعوز واللاعقلانية الفظة والعقبات امام سعادة الانسان»

و«كل النظام القائم، وتنظيم المجتمع يبدوان على درجة كبيرة من الفظاعة والتناقض والسخافة».

وحارب أوين الملكية الخاصة كأساس أسس كل الظلم الاجتماعي السائد في المجتمع. «لقد كانت الملكية الخاصة ولا تزال سبب الجرائم والويلات التي لا حصر لها والتي يقاسيها الانسان». وخرجت من تحت قلم أوين سطور حانقة هي صك اتهام ضد الملكية الخاصة.

فهو يكتب ان «الملكية الخاصة تباعد بين عقول الناس، وتخدم كسبب دائم لظهور العداء في المجتمع، وكمصدر ثابت للخداع والاحتيال بين الناس. وهي تحرض على البغاء بين النساء. وقد عملت كسبب للحروب في جميع العصور المعروفة لنا من تاريخ الانسانية، واثارت اعمال تقتيل لا حصر لها».

وبالتالي فان المهمة الرئيسية هي القضاء على الملكية الخاصة. ان الانسانية ستتنفس ملء صدرها عندما يتحول كل شيء ما عدا ادوات الاستعمال الشخصي الى ملكية اجتماعية، عند ذلك ستصبح كل خيرات كافية للجميع. وبكلمات اخرى ان السعادة الحقيقية للانسانية ستحل حين تبنى الشيوعية.

الا ان أوين لم يعرف الطرق الى التحويل الجذري للنظام الاجتماعي. فقد ظن بسذاجة أن من الممكن التوصل الى ذلك عن طريق الاصلاح. فكان يتقدم دائما الى الاوساط الحاكمة المعاصرة له باقتراحات اصلاحية: الى البرلمان الانجليزي، وحكومات اوروبا واميركا، والى «الحلف المقدس» ـ وهو تكتل رجعي لملوك اوروبا، والى فكتوريا ملكة انجلترا، والى نيقولا الاول الامبراطور الروسي.

وأوين مثل الاشتراكيين الطوباويين الفرنسيين لم يفهم اهمية النضال الطبقي للبروليتاريا، كما كان بعيدا عن فهم دور النضال السياسي والتنظيم السياسي للطبقة العاملة. وفي الوقت ذاته ساهم مساهمة كبيرة في تطور النضال الاقتصادي للعمال الانجليز. فقد حاول أوين في المعمل الذي يمتلكه في نيولينارك أن يحسن ظروف العمل، وقصر يوم العمل، وسعى الى رفع اجور العمال، وفتح مدرسة نموذجية، ودارا للحضانة، وروضة اطفال، وصندوقا للعلاج في المستشفى. وكان منظما لحملة اجتماعية واسعة تعمل لأن يحدد بقانون يوم العمل للاطفال والذين هم دون سن الرشد.

المكانة التاريخية
للاشتراكية الطوباوية

اشار الطوباويون العظام بقوة كبيرة الى اضطهاد الجماهير في النظام الرأسمالي، وحاولوا أن يعارضوا النظام المعاصر لهم بصورة نظام جديد مثالي. فقد بدا لهم أن هذا كان كافيا لنجاح القضية. واولوا اهمية كبيرة لوصف تفاصيل الحياة المقبلة؛ فقد كانـوا يريدون جذب جميع النـــاس بهذه الصورة الرائعة. الا أن الطوباويين بعد أن طرحوا المجتمع القديم للنقد لم يجدوا فيه نفسه الظروف المادية لتغييره.

وهم في نقدهم للرأسمالية لم يستطيعوا شرح طبيعتها، وجوهرها، واتجاهات تطورها، ولهذا لم يستطيعوا أن يعالجوا أمرها، فاعلنوا ببساطة أنها غير صالحة ابدا. ولم يلاحظ الطوباويون في الطبقة العاملة القوة المنظمة والواعية للتقدم الاجتماعي. وقد كتب ماركس في كتاب «بؤس الفلسفة» (١٨٤٧) ان الاشتراكيين الطوباويين رأوا في الفقر فقرا فقط، دون أن يلاحظوا جانبه الثورى الهدام

الذي سيطوح بالنظام القديم. ولم تكن البروليتاريا بالنسبة لهم الا أتعس وأشقى طبقة. ولهذا فان تعاليم الاشتراكيين الطوباويين غير المرتبطة بالحركة العمالية بقيت، بوجه عام، في معزل عن الحياة، وكانت مجرد تمنيات طيبة لم تؤثر في الحياة الواقعية. كتب لينين: «الطوباويا في السياسة هي أمنية من نوع لا يمكن تحقيقه ابدا، لا الآن ولا فيما بعد، أمنية لا تعتمد على قوى اجتماعية، ولا تتعزز بنمو وتطور القوى السياسية والطبقية» *.

ومن هنا جاء عقم الاشكال التي اختاروها للنشاط العملي. فاذا كان فريق منهم قد اقتصر على تاليف الخطط المجردة لاعادة تنظيم المجتمع، توجه فريق آخر الى الرأسماليين وخدمهم برجاوات والتماسات لتحسين وضع العمال، ونشروا الاعتقاد في امكانية «تغيير فكر» المجتمع واغنياء منفردين، او حتى اعادة تربية طبقات مستغلة كاملة، ودولتها، وبدد فريق ثالث القوى والحماس على تنظيم اتحادات

* لينين. المؤلفات، الطبعة الروسية، المجلد ١٨، ص ٣٢٦.

«اشتراكية» مقضي عليها بالزوال مقدما. وحلم أوين بتحويل الرأسمالية الى الاشتراكية فقط عن طريق انتشار التعاونيات على نطاق واسع مبتعدا كليا في نفس الوقت عن القضايا الاساسية، قضايا النضال الطبقي، وظفر الطبقة العاملة بالسلطة السياسية، والاطاحة بسيادة الطبقات المستغلة.

بالرغم من ذلك فان الافضال التاريخية للطوباويين عظيمة للغاية. كتب أحد مبدعي الاشتراكية العلمية ـ فريدريك انجلس ـ أن التعاليم التي وضعها ماركس وهو «تقف على اكتاف سان سيمون وفوريه وأوين ـ المفكرين الثلاثة الذين ينتمون، بالرغم من كل خيالية وطوباوية تعاليمهم، الى اعظم العقول في كل الازمان، والذين استشفوا في عبقرية عددا لا حصر له من الحقائق التي نبرهن الآن على حقيقتها علميا...» *

وقدر ماركس وانجلس ولينين تقديرا عاليا الاستنتاجات الايجابية للاشتراكيين الطوباويين

* ماركس وانجلس. المؤلفات، المجلد ١٨، ص‌ص ٤٩٨ـ٤٩٩.

العظام بخصوص المجتمع المقبل: حول القضاء على التناقض بين المدينة والقرية، والعمل المأجور، وحول تحويل الدولة الى محض ادارة للانتاج، وحول تحويل العمل الى ممارسة خلاقة، وحاجة للانسان، وغير ذلك.

واشار ماركس وانجلس الى أن النزعة الخيالية الى الارتفاع فوق النضال الطبقي قد فقدت، بمقدار تطور النضال الطبقي للبروليتاريا، أي معنى فعلي، وأي تسويغ نظري*.

وفي نحو منتصف القرن التاسع عشر كان على الاشتراكية الطوباوية أن تتخلى عن مكانها للاشتراكية العلمية. وأخذ الاشتراكيون الطوباويون البعيدون عن الجماهير التي تخوض نضالا ثوريا، لا يقدمون لقضية التقدم الاجتماعي منفعة بل مضرة. نمت الحركة العمالية دون انقطاع، وتعاظم سخط الشغيلة على الاستغلال الرأسمالي، ومع ذلك فان الطوباويين اتباع سان سيمون وفوريه وأوين استمروا في الانصراف عن البروليتاريا. ونشروا الاوهام في اصرار

---

* ماركس وانجلس. المؤلفات، المجلد ٤، ص ٤٥٦.

متزايد عن امكان الوصول الى الاشتراكية لا عن طريق النضال الطبقي الحاسم، بل بنتيجة التوفيق العام بين الطبقات، ووجوب الاعتماد على طيبة الاغنياء الذين سيضحون، في آخر المطاف، بكنوزهم في سبيل اقامة نظام اجتماعي جديد. وأخذ اتباع الاشتراكية الطوباوية يعرقلون اقامة احزاب سياسية مستقلة للطبقة العاملة. خاضت البروليتاريا وهي أعظم قوة قادرة حقا على تحويل المجتمع، النضال في بداية القرن التاسع عشر دون أن يكون لها تنظيمها القوى الخاص وبرنامج واضح، ودون أن تعي امكانياتهـــا، والهدف النهائي. وكان من الضروري التغلب على انفصال الافكار الاشتراكية عن الجماهير، وعن كفاحها اليومي ضد المستغلين. ولم تصبح الاشتراكية قوة تاريخية عظيمة الا حين اندمجت بالحركة الثورية للطبقة العاملة. الا أنه كان من الضروري لهذا الأمر تغيرات جذرية في الافكار الاشتراكية نفسها، والتغلب على طوباويتها.

وقد حققت ذلك اشتراكية ماركس وانجلس ولينين العلمية.

اشتراكية البرجوازية الصغيرة

كان على الاشتراكية العلمية، منذ الايام الاولى من وجودها أن تشن نضالا عنيدا ضد اتباع الاشتراكية الطوباوية، وضد ممثلي التعاليم الجديدة، الاشتراكية الزائفة. وكان هؤلاء واولئك معبرين عن نزعات البرجوازية الصغيرة ـ الفلاحين الصغار والمتوسطين، والحرفيين والتجار الصغار. فهذه الفئات من المجتمع تحتل وضعا وسطا بين طبقتين رئيسيتين في المجتمع البرجوازى هما ـ البرجوازية والبروليتاريا. والبرجوازية الصغيرة نفسها ذات وجهين بطبيعتها. فمن ناحية ان كل فرد منها انما هو صاحب ملكية ولو كانت صغيرة، ملكية خاصة لوسائل الانتاج. الا انه من الناحية الأخرى شغيل، كادح. وفي ظروف الرأسمالية تتحطم الاستثمارة الصغيرة حتما، وتزحم من قبل الانتاج الرأسمالي الكبير. وتنشأ اشكال برجوازية صغيرة للاشتراكية من احتجاج المالك الصغير على مزاحمة رأس المال الكبير. وكان أبرز ممثليها في زمن ماركس وانجلس هما الفرنسي بيير جوزيف برودون (١٨٠٩ـ١٨٦٥) والروسي

ميخائيل باكونين (١٨١٤-١٨٧٦) اللذان حـاولا معارضة الاشتراكية العلمية بنظرياتهما البرجوازية الصغيرة المحدودة.

وكالاشتراكيين الطوباويين في بداية القرن التاسع عشر انتقد ممثلون كثيرون لاشتراكية البرجوازية الصغيرة انتقادا شديدا تناقضات المجتمع الرأسمالي، والنتائج المدمرة للانتاج الآلي وتطور التجارة بالنسبة لاستثمارات الفلاحين والحرفيين، وفظائع وويلات اصحاب الملكية الصغار الذين منوا بالخراب، وقسوة الانظمة الرأسمالية، وانحلال الاخلاق القديمة والعائلة، والتحطيم الذي لا رحمة فيه لكل نمط الحياة السابق. فمثلا قدم برودون نقدا ذكيا لكثير من النتائج السلبية لسيطرة الملاكين الكبار، وفضح الطبيعة القاسية لجميع اشكال الدولة الاستغلالية ـ المَلَكية والارستقراطية والديموقراطية البرجوازية.

الا أن الاشتراكيين البرجوازيين الصغار، على اية حال، وقعوا كليا تحت نفوذ ايديولوجية المجتمع الرأسمالي، ولم يكونوا قادرين فكريا على الخروج وراء حدودها. فهم لم يطالبوا مطلقا بالقضاء على اساس الرأسمالية ـ الانتاج البضاعي والملكية الخاصة

لوسائل الانتـاج. لقد ارادوا تخليد الملكيــة الخاصة الصغيرة، وانتقدوا الملكية الرأسمالية الكبيرة من المواقف البرجوازية الصغيرة بالذات. انهم فعليا لم يطرحوا برنامجا للقضاء على الرأسمالية، بل لتنظيفها من سوء التصرف، والاعوجاجات، والازمات، و«العيوب» الأخرى، طرحوا برنامجا خياليا لاقامة رأسمالية «عادلة». والمشاريع الاخرى للمجتمع المقبل التي قدمها مختلف ممثلي الاشتراكية البرجوازية الصغيرة رسمت في الواقع ايضا صورة ملبّسة بالمثالية للرأسمالية نفسها، طامسة جوانبها السلبية

ولم يرد ايديولوجيو الاشتراكية البرجوازية الصغيرة (البرودونية والباكونية وغيرهما) أن يواجهوا الواقع، واغمضوا عيونهم عن العمليات الواقعية الكثيرة المحددة لجميع التطور الاجتماعي ففسروا التناقضات الطبقية تفسيرا خاطئا، وفي الغالب تجاهلوها عمومـا وصمتوا عنهـا. وبوجه عـام تتميز الاشتراكية البرجوازية الصغيرة من الناحية النظرية بعدم فهم للاساس المادي للتطور التاريخي، وعدم المقدرة على استخلاص دور واهمية كل طبقة في المجتمع الرأسمالي. ويعتبر ممثلو الاشتراكية

البرجوازيـــة الصغيرة نظريتهم تعبيرا عن مصالح «كـل الشعب» ودفاعـــا عن «العدل الشامل» و«الحق المتساوى للجميع» أي للبروليتاريا المجردة من الملكية، ولاصحاب الملكية الصغار، ولأصحاب الملكية الكبار. وهؤلاء الايديولوجيون قد وقعوا في خداع النفس، وحسب ملاحظة ماركس الساخرة التي سجلها في كتاب «النضال الطبقي في فرنسا» (١٨٥٠) كانوا مقتنعين بأن عالما يعاد بناؤه حسب احتياجات البرجوازيين الصغار انما هو أحسن العوالم بحيث يحقق جميع المطالب الثورية، ويتفادى جميع المصادمات الثورية.

ولما كانت الطرق الفعلية الحقيقية لتطور المجتمع لم ترق للاشتراكيين البرجوازيين الصغار فانهم انطلقوا في البحث عن «طرق اخرى» متوهمين أن التعسف الفردي و«الجهد الارادي» قادران على وقف سير التاريخ، وتحويل العلاقات الواقعية، وحمل المجتمع على القفز فوق المراحل الضرورية للتطور. وهكذا فان الكثير من الاشتراكيين البرجوازيين الصغار في القرن التاسع عشر، ولا سيما في الاقطار التي بدأ تطور الرأسمالية فيها توا، حلموا بوقف تطور

الصناعة والبروليتاريا. وكانوا غير قادرين على أن يفهموا أن من الضروري مطلقا لتكوين مجتمع جديد متحرر من الاستغلال أن تنمو القوى المنتجة نموا هائلا، وأن يصل تطورها الى درجة عالية، لانه كما يكتب ماركس وانجلس في كتاب «الايديولوجية الالمانية» (١٨٤٥-١٨٤٦) بدون هذا «لا يكون ثمة الا انتشار **الفقر** بشكل عام، وفي **الحالة القصوى من الفاقة** سيكون من اللازم بدء النضال مجددا في سبيل المواد الضرورية، يعني سيكون من اللازم بعث كل الشناعة القديمة من جديد» *.

والاشتراكية الشعبية التي تميزت بها الاقطار الزراعية الضعيفة التطور ذات المستوى المنخفض من تطور الرأسمالية، هي نوع من الاشتراكية البرجوازية الصغيرة الطوباوية.

وان الفرق بين الاشتراكية الشعبية والنظريات الاشتراكية الاوروبية الغربية للطوباويين البرجوازيين الصغار قد انبثق من الوضع الاجتماعي الاقتصادي الذي تطورتا فيه.

---

* ماركس وانجلس. المؤلفات، المجلد ٣، ص ٣٢.

لقد ادارت الاشتراكيـــة البرجوازية الصغيرة الطوباوية في الاقطار الرأسمالية في الغرب ظهرها للتطور، وارادت اعادة الماضي. وبحث ايديولوجيوها عن نماذج في الانظمة والتقاليد القديمة، وارادوا التحول من الانتاج الرأسمالي الكبير الى التنظيم الورشي للصناعة، والى الزراعة الأبوية. ومثل هذه الاشتراكية البرجوازية الصغيرة الطوباوية كانــت بالطبع رجعية لانها كانت تعني محاولة ايجاد مخرج من الوضع الصعب للبرجوازية الصغيرة، ولا سيما الفلاحون، باعادة عجلة التاريخ الى الوراء في الاقطار التي وصل فيها تطور الرأسمالية الى درجة عالية.

وفي الاقطـــار الزراعية يعاني الفلاحون من مخلفـــات الاقطاعية اكثر من الرأسماليـــة، او، كما كتب لينين، لا يعانون من الرأسمالية بقدر ما يعانون من تطورها غير الكافي. والاشتراكية البرجوازية الصغيرة الطوباوية التي تظهر في هذه الحال كتعبير عن احتجاج الفلاحين، والتي تمكن تسميتها، بتعبير آخر، بالاشتراكية الفلاحية تحمل طابعا مغايرا بعض الشيء، وتتخذ اتجاها آخر.

فاذا كانت قد أتسمت في الغرب، في الاقطار

الصناعية، بطابع رجعي، فانها في الاقطار الزراعية تجمع في نفسها عناصر تقدمية ايضا، لأنها طرحت مسألة القضاء على مخلفات القرون الوسطى، والتحرر من الأصفاد الاقطاعية التي تشد الفلاحين، وعلى هذا النحو، مسألة التعجيل بالتطور الاقتصادي. فهي من هذه الناحية تنظر الى الامام لا الى الخلف، وبذلك تكمن خاصية الاشتراكية الشعبية أو الفلاحية في الاقطار الزراعية التي توجد فيها مخلفات كثيرة من الاستغلال الاقطاعي. ومع ذلك فحتى مع وجود السمات التقدمية في الاشتراكية الفلاحية فانها ظلت اشتراكية برجوازية صغيرة طوباوية.

وافترض انصار الاشتراكية الفلاحية وايديولوجيوها أن في الامكان جعل كل الناس اسيادا «متساوين»، «احرارا» و«مستقلين» عن طريق تطبيق الاستخدام العام المسوّى للارض حيث لن يكون اغنياء ولا فقراء. وسموا مثل هذا الاستخدام المسوّى للارض «نظاما اشتراكيا». الا أنهم لم يفهموا أنه ما من تسوية لقطع الارض تستطيع ان تقضي على العوز والبؤس، وعدم المساواة والاستغلال ما دام الاقتصاد البضاعي موجودا، وما دامت سلطة

النقود وقوة الرأسمال باقيتين. وبالاضافة الى ذلك لم يفهموا أن مثل هذا «النظام المسوّى» للاقتصاد الصغير غير ممكن بشكل عام، كما ليس من الممكن الاحتفاظ بالاقتصاد الصغير نفسه في عهد الرأسمالية. فانه يسحق بالتبادل البضاعي والتنافس، ويجري تركيز الملكية، وتخريب الاستثمارات الضعيفة، وابتلاع الاستثمارات الكبيرة لها. وينقسم الفلاحون الصغار الملكية حتما الى برجوازيين وبروليتاريين. وليس الاستخدام المسوّى للارض في واقع الامر الا شرطا لأتم قضاء على المخلفات الاقطاعية، ولأكثر تطور للرأسمالية حرية، وليس لاقامة الاشتراكية.

ولم تكن لنظريي «الاشتراكية الفلاحية» فكرة علمية حقيقية عن التطور الاجتماعي، ولم يروا القوانين العامة لتطور الانسانية، ولهذا رأوا في عدم تطور العلاقات الرأسمالية في هذا القطر أو ذاك «نموذجا خاصا» وميزة خاصة، وبالتالي امكانية طريق خاص في تطور الاشتراكية. وحقيقة أن من غير الممكن في مثل هذه الاقطار القضاء على التخلف الاقتصادي والعوز بلا ثورة زراعية او اصلاح زراعي جذري يضطلع بدور حاسم في النضال

لاجل القضاء الكلي على الانظمة الاقطاعية قد جعلت نظريي الاشتراكية الفلاحية يتوصلون الى استنتاج هو أن الفلاحين بالذات هم حملة الافكار الاشتراكية وقوة الثورة المحركة. ولهذا كانوا في العادة يعارضون الطبقة العاملة بالفلاحين.

وقالوا اذا كان انسان المستقبل في الاقطار الرأسمالية المتطورة في اوروبا هو العامل فهو في الاقطار الاخرى الفلاح. وقد رأوا أن الرأسمالية ولّدت عذابات الجماهير وآلامها ولهذا طرحوا مسألة تفادي تطور الرأسمالية، والانتقال مباشرة الى الاشتراكية. فهل هذا ممكن؟ نعم، ممكن، لقد كتب كارل ماركس وفريدريك انجلس وفلاديمير ايليتش لينين أن الاقطار الاكثر تخلفا تستطيع بمساعدة البروليتاريا المنتصرة في الاقطار الاكثر تقدما أن تتفادى المرور في كل مراحل التطور الرأسمالي.

الا ان نظريي الاشتراكية الفلاحية اجابوا على هذا السؤال جوابا مختلفا. فقد شرحوا امكانية تفادي الطريق الرأسمالي للتطور بأن فلاحي هذه الاقطار أكثر ثورية، واكثر اشتراكية من الطبقة

العاملة في الغرب. واذا كانت الثورة في اوروبا تخرج من المدن، فانها هنا تخرج من القرى.

ومن الاعتقاد بان الفلاح أقرب من العامل الى الاشتراكية، ولهذا يجب بناء الاشتراكية من الصفات التي تشكلت عفويا في نفسية الفلاحين، انبثقت ايضـا خصائـص تاكتيـك ايديولوجيـي الاشتراكية الفلاحية التي تميزت، ككثير من الاتجاهات الاخرى للاشتراكية البرجوازية الصغيرة، بالثورية البرجوازية الصغيرة. فقد كان لبعضهم، كالبلانكيين - انصار التاكتيك التآمري من اتباع الثوري الفرنسي أوغوست بلانكي (١٨٠٥-١٨٨١)- تنظيم ثوري صارم. وللبعض الآخر، كالفوضويين - اتباع باكونين - رفض كلي لاية سلطة بما في ذلك الثورية، ورفض لكل مركزية وطاعة، أي انعدام التنظيم كليا. ولكن هؤلاء واولئك متساوون في عدم فهمهم أن من الضروري لتحرير الشغيلة كفاح الشغيلة **أنفسهم** الحازم المستميت، واستعداد **الجماهير** الواعي للاقدام على الانقضاض على النظام القديم.

وأكد الفوضويون أن الشعب دائما مستعد الى التمرد، الى الثورة الاجتماعية، الى الاشتراكية، وان

له منذ الولادة «غريزة ثورية اشتراكية» خاصة، ولهذا لا حاجة الى تنظيم، ولا الى عمل توضيحي صابر بين الجماهير. ويكفي اثارة التمردات واحدا بعد الآخر، وقالوا ان «الجمباز الثوري» مفيد للشعب. وظن البلانكيون وغيرهم من انصار التاكتيك التآمري انهم وحدهم، بغير الشعب، وبقوى «الاقلية البطولية المتحمسة» وحدها، وبلا شغيلة يقدرون على قلب المجتمع القديم رأســا على عقب. وكذلك رفضوا أية مراحل وسطية، وأي عمل تحضيري، تنظيمي ودعائي، وأي تحالفـات طبقية، وتنازلات. وتصوروا أن الحظ لو يساعدهم، واليمن لو يقع من نصيبهم فانهم سينتصرون اليوم أم غدا، ويقيمون على الفور مجتمعا شيوعيا. ولم تكن هنا حجج على جدوى هذه الخطة الثورية اذا ما ترك جانبا الفوران ونفاد الصبر، الصفة العامة لممثلي الثورية البرجوازية الصغيرة.

وتجدر الاشارة الى أنه خلافا لكثير من اتجاهات الاشتراكية الطوباوية الاوروبية الغربية التي راهنت لتحقيق نظراتها على دائرة ضيقة من المتآمرين ومن على شاكلتهم توجه الاشتراكي

الطوباوي الروسي والديموقراطي الثوري تشيرنيشيفسكي (١٨٢٨-١٨٨٩) والمشاركون له بالفكر الى جماهير الشغيلة، والى الثورة الفلاحية. وبسبب تطور روسيا الاقتصادي الضعيف لم يستطيعوا اكتشاف الدور الحاسم للطبقة العاملة في القضاء على النظام الاستغلالي، وفي بناء مجتمع اشتراكي. ولم يكونوا يعرفون افكار اشتراكية ماركس-انجلس العلمية.

وبوجه عام تتميز الثورية البرجوازية الصغيرة بتجاهل الظروف التاريخية الملموسة والميل الى تخطي المراحل الضرورية لتطور الثورة الى الاشكال العالية للمجتمع مباشرة، اي الى الشيوعية، والمبالغة في دور العنصر الذاتي، وحب العبارة اليسارية الثورية الفخمة.

وغالبا ما يجذب النضال الثوري للبروليتاريا اصحاب النزعات الثورية البرجوازية الصغيرة بقوته وتنظيمه وسطوع شعاراته ووضوحها. وقد ينضمون لفترة معينة الى الحركة البروليتارية، الا أن روح الاشتراكية العلمية تظل غريبة عليهم. فهم يتقبلون من هذه النظرية بعض الشعارات وبعض العبارات الجاهزة فقط. ويعوزهم الصمود والضبط، وهذا يعيق

فهم ضرورة القيام بعمل مثابر وصابر بين الجماهير لبلوغ النجاح. ويدفعهم عدم الاقتدار وعدم الرغبة في القيام بمثل هذا العمل بين الجماهير الى الارهاب، الى «الجمباز الثوري»، والى الاثارة المصطنعة لاحداث ثورية – من وراء ظهر الجماهير، وبرغم التطور الموضوعي، الى التضخيم والمبالغة باهمية شكل واحد فقط من اشكال النضال – الشكل العنيف المسلح وكأنما هو الشكل الوحيد الصالح في كل وقت، وفي كل مكان.

كما سببت الطبيعة الاجتماعية المتناقضة للبرجوازية الصغيرة تناقضا ايضا في الاساليب السياسية، واشكال النشاط، والكفاح، والتنظيم التي ارادت الاتجاهات المختلفة للاشتراكية البرجوازية الصغيرة أن تنال اغراضها بواسطتها. كانت بعض الاتجاهات تتميز بالمبالغة في اهمية السياسة وبالانغماس في التاكتيك التآمري. والبعض الآخر، بالعكس، أهمل السياسة أو قلّصها الى التكيف مع الظروف، الى الاصلاحية.

الا أن السياسيين البرجوازيين الصغار، في كل الاحوال، كانوا يعلنون في العادة عن دعاواهم بـ«الدور

المستقل»، واستقلال حركتهم، وطبقتهم في مجتمع النضال الطبقي الضاري بين البرجوازية والبروليتاريا. ومع ذلك فبحكم الوضع الموضوعي لاصحاب الملكية الصغار ـ وضعهم الوسطي بين البرجوازية والبروليتاريا ـ أدى هذا «الدور المستقل» في أحسن الاحوال الى محاولات لايجاد «خط وسط» بين الطبقتين الرئيسيتين في المجتمع الرأسمالي. ولكن الميل الى ايجاد «خط وسط» في هذه الحال انما هو الميل الى شيء مستحيل وغير ممكن التحقيق. وفي الغالب مال السياسيون البرجوازيون الصغار بمعارضتهم لقيادة البروليتاريا الثورية، الى المصالحة في آخر المطاف مع البرجوازية، وبهذا، الى الخضوع لها، وتعزيز سيادتها على تلك البرجوازية الصغيرة ايضا.

كما أصبح جزء من ايديولوجيي الاشتراكية البرجوازية الصغيرة مضللين متعمدين للطبقة العاملة والفلاحين، واصبحت التعابير الاشتراكية لجملة من الاحزاب البرجوازية الصغيرة وحتى البرجوازية تستخدم فقط لغرض تغطية جوهر هذه الاحزاب، ووسيلة للتملص من الجواب عن من هم المناضلون في سبيل

الاشتراكية حقا، وما هي القوى التي تقف على رأس الحركة الثورية.

وكانت امام الاشتراكيين الفلاحين البرجوازيين الصغار دائما مسألة مع من ينبغي أن يسيروا، وفي أي معسكر يجب أن يكونوا – في معسكر البرجوازية أو معسكر البروليتاريا. وكثير من ممثليهم سلكوا طريق التحالف مع الطبقة العاملة، طريق الاشتراكية الماركسية-اللينينية العلمية، الطريق الوحيد الذي يضمن المراعاة الحقيقية التامة لمصالح الديموقراطية الفلاحية. عند ذلك بالضبط أيقنوا من أن طريقا واسعا ينكشف لهم نحو الاشتراكية، وأن تحالفهم مع الاحزاب البروليتارية الماركسية-اللينينية لا يعني، على الاطلاق، ابتلاع مصالح الديموقراطية الفلاحية، وأن طريقي الديموقراطية الفلاحية والاشتراكية البروليتارية يلتقيان في الواقع التاريخي.

وفي العهد المعاصر أصبح نضال الاشتراكية العالمية، والرأسمالية العالمية المضمون الاساسي للعملية التاريخية، ومحور النضال الطبقي على نطاق عالمي. لقد خابت آمال الجماهير الواسعة في الاقطار

المتأخرة المستعمرة وشبه المستعمرة سابقـا في الرأسمالية، وهي تنبذها. انها تقتنع من مثال الاتحاد السوفييتي والاقطار الاشتراكية الاخرى بمزايا النظام الاشتراكي. ويتحول افضل ممثلي الديموقراطية الثورية من الاشتراكية البرجوازية الصغيرة والفلاحية الى الايديولوجية الاشتراكية الحقيقية، الى الاشتراكية العلمية، ويبحثون ويجدون الطرق والاساليب والاشكال للانتقال الى الطريق غير الرأسمالي للتطور. واقطار الاشتراكية تساعدهم في هذه العملية. لقد اظهرت تجربة الاتحاد السوفييتي ايضا امكانية حقيقية لتفادي المرحلة المؤلمة للرأسمالية، اذ انتقل فلاحو المناطق القومية المتخلفة، كآسيا الوسطى مثلا، بالاعتماد على مساعدة الشعوب الشقيقة، والخطة اللينينية لبناء المجتمع الاشتراكي، من الاقطاعية الى الاشتراكية مباشرة متفادين الرأسمالية. وتظهر تجربة الاتحاد السوفييتي باقناع طريقا حقيقيا غير رأسمالي للتطور كما تظهر أن الديموقراطية الفلاحية تستطيع ولا بد من أن تصل بالتحالف مع الطبقة العاملة الى التصار الاشتراكية، الى بناء المجتمع الاشتراكي.

٣ ـ الاشتراكية العلمية حول الرسالة التاريخية العالمية للطبقة العاملة

خلال تاريخ المجتمعات الطبقية كله لم تتصالح الشغيلة والجماهير المضطهدة مع النظام الاستغلالي. نهض العبيد الى النضال ضد مالكي العبيد، والفلاحون ضد اصحاب الاطيان ومالكي الرقيق. الا أن البروليتاريا خاضت المعركة الاخيرة والحاسمة من اجل القضاء على الاستغلال على الارض.

طورت الرأسمالية القوى المنتجة، وجاء عصر الآلات، وعصر البخار والكهرباء، وظهرت الطبقة العاملة، وكذلك ظهرت مقدمات لنمو تنظيمها ووعيها. واصبحت ازاحة المستغلين عن حياة المجتمع الانساني مهمة واقعية. ولكن كان من الضروري لتحقيقها أن يصبح الحلم بحياة أفضل على الارض نظرية علمية تعمم التجربة الثورية لدى الجماهير، وتنير طريق الكفاح من أجل بناء المجتمع الجديد، أن تكون الطبقة العاملة التى الهمتها هذه النظرية متراصة ومنظمة سياسيا وفكريا من اجل الكفاح العظيم والانتصارات.

«بيان الحزب الشيوعي»
لماركس وانجلس

فتح كارل ماركس وفريدريك انجلس طرقا واقعية الى الاشتراكية، وحوّلا الاشتراكية من طوباويا الى علم. ولهذا سميت تعاليمهما بالاشتراكية العلمية.

بدأ نشاطهما العلمي والثوري في المانيا، في العقد الخامس من القرن الماضي. في ذلك الزمن نمت في انجلترا وفرنسا والمانيا وبعض اقطار اوروبا الاخرى مع تطور الرأسمالية طبقة جديدة هي البروليتاريا الصناعية.

وفي شباط (فبراير) عام ١٨٤٨ صدر «بيان الحزب الشيوعي» الذي كتبه ماركس وانجلس بتكليف من منظمة عمالية هي «عصبة الشيوعيين». وقد وضع فيه ماركس وانجلس بسطوع التعاليم الثورية للبروليتاريا ـ نظرية الاشتراكية العلميـة. وقد برهنا على أن المجتمع القائم على الاستغلال الرأسمالي لا بد من أن يحل محله مجتمع بلا استغلال، بلا مضطهِدين ومضطهَدين. وخلقت بدلا من المثال الخيالي المتناقض المحدود للطوباويين نظرية

محكمة للتطور الاجتماعي قائمة على التحليل العلمي. ومنذ ذلك الحين أصبح للمثل العظيمة للاشتراكية اساس علمي لا يتزعزع.

وقد برهن ماركس وانجلس علميا في «بيان الحزب الشيوعي» وفي اعمالهما الأخرى أن كفاح الشغيلة الخالقة لكل الخيرات المادية، ضد المستغلين هو القوة المحركة للتاريخ، القوة المحركة لتطور جميع المجتمعات الطبقية ابتداء من مجتمع مالكي الرقيق الى الرأسمالية. وبحث مبدعا الاشتراكية العلمية بتفصيل خاص النظام الرأسمالي، وكشفا عن تناقضات الرأسمالية المفضية بها الى الزوال المحتوم. واشارا الى تلك القوة الاجتماعية التي ستحقق المهمة التاريخية، مهمة القضاء على الرأسمالية وبناء الاشتراكية. وهذه القوة هي البروليتاريا.

وينتهي «بيان الحزب الشيوعي» بدعوة عمال جميع العالم الى الاتحاد للنضال ضد الرأسمالية:

«فلترتعش الطبقـــات الحاكمة امـــام الثورة الشيوعية. فليس للبروليتاريا ما تفقده فيها سوى قيودها واغلالها، وتربح من ورائها عالما باسره.

يا عمال العالم، اتحدوا!»

الرسالة التاريخية العالمية للطبقة العاملة

ان الشيء الرئيسي في تعاليم ماركس وانجلس هو توضيح الدور التاريخي العالمي للبروليتاريا كصانعة المجتمع الاشتراكي. ان الرأسمالية تخلق بنفسها حفار قبرها بشخص البروليتاريا. ان تطور المجتمع الرأسمالي ونمو الصناعة الكبيرة يعنيان، في الوقت نفسه، نمو الطبقـــة العاملة، التي تحمل الخلاص لجميع الشغيلة، لجميع الانسانية من نير الاستغلال. ويخلق المجتمع الرأسمالي الظروف المادية والظروف الاخرى التي لا تجعل فقط العمال قادرين على تحطيم الانظمة الجائرة، بل وتجبرهم ايضا على أن يفعلوا ذلك.

فلماذا استنتج ماركس وانجلس أن هذه المهمة العظيمة، مهمة تحرير الانسانية تعود الى الطبقة العاملة؟

أولا، لأن العمال أكثر طبقات المجتمع الرأسمالي نصيبا من الاستغلال. وتصبح الطبقة العاملة بحكم ظروف وجودها اليومي عدوا لا يهادن للاستغلال

الرأسمالي، ولها مصلحة حية في القضاء على النظم البرجوازية ـ النظم التي يتحول فيها نتاج عمل البروليتاريين نفسه ضدهم، وينقلب الى اداة لاضطهادهم أنفسهم. وللطبقة العاملة مصلحة اكثر من الجميع في القضاء على الملكية الخاصة لوسائل الانتاج لأن الملكية الخاصة اساس استغلالها. ولا يملك العمال شيئا في المجتمع الرأسمالي غير ايديهم العاملة، والمقدرة على العمل. وهم لا يفقدون شيئا في الثورة. وبنتيجة هذه الثورة يكسبون كل شيء: الملكية الاجتماعية لوسائل الانتاج، والسلطة السياسية، وامكانية رفع مستوى المعيشة بشكل مطرد، وامتلاك كل ثروات الثقافة.

ثانيا، العمال، حسب وضعهم في الانتاج، مرتبطون ليس بماضيه، بل بمستقبله، وبالتالي، بمستقبل المجتمع باسره.

يجرى في عهد الرأسمالية، تطور الصناعة الكبيرة، وهذا لا يضعف الطبقة العاملة، بل بالعكس، يؤدي الى نمو عددها، الى زيادة دور البروليتاريا في حياة المجتمع. والمجتمع الرأسمالي بطبيعته بالذات لا يستطيع ان لا يولد الطبقة العاملة.

وتتفق المصالح الطبقية الجذرية للعمـــال ومطامحهم مع اتجاه التقدم الاجتماعي، اتجاه تطور القوى المنتجة. اما الملكية الخاصة فتقيد نمو القوى المنتجة. ولاطلاق حريتها يجب القضاء على الملكية الخاصة لوسائل الانتاج الا أنه في هذا بالذات تكمن أهم مصلحة للبروليتاريا.

والطبقة العاملة هي خالقة القوى المنتجة الجبارة في المجتمع الحديث. وبعمل البروليتاريا الذي لا يكل، في أعظم تشديد على قواها العضلية وقابلياتها الفكرية خلقت المقدمات المادية «للسمو بالعمل نفسه – كما كتب ماركس – ولرفع انتاجيته الى المستوى الذي يجعل الوفرة الشاملة ممكنة» *. وكان تكوين القوى المنتجة التي لا تنضب للصناعة الحديثة قد خلق الشرط الاول لتحرير العمل. ونتيجة للتطور الهائل في القوى المنتجة يختفي أي اساس لتقسيم الناس الى سادة ومسودين، مستغلِين ومستغلَين. وقد نفذت طبقة الرأسماليين دورها التاريخي، وتحولت الى عائق لتطور الانتـــاج، والمجتمع كلـه،

---

* ماركس وانجلس. المؤلفات، المجلد ١٠، ص ١٢٢.

والانسانية جمعاء: انها تعرقل اقامة المساواة الحقيقية والوفرة الشاملة. وعلى البروليتاريا الآن أن تحقق الشرط الثاني لتحرير العمل: القضاء على الملكية الخاصة والاحتكار للوسائل المنتجة لثروات المجتمع، واخضاعها للاشراف الجماعي للمنتجين، واتاحة الفرصة لكل عضو في المجتمع للمساهمة ليس فقط في الانتاج، بل وفي توزيع وادارة ثروات المجتمع ايضا، واقامة تنظيم مخطط لكل الانتاج، وتطوير الانتاج الاجتماعي بواسطته الى نطاقات بحيث ستضمن لكل فرد تلبية حاجاته المعقولة على نطاق يتسع باستمرار.

ثالثا، ان الطبقة العاملة هي الطبقة الوحيدة في المجتمع الرأسمالي المالكة للصفات التي تسمح لها بأن تأخذ على عاتقها المهمة التاريخية، مهمة القضاء على النظام الاستغلالي. وللطبقة العاملة افضلية الجمهور – افضلية طبقة من اكبر الطبقات عددا للمجتمع الرأسمالي، وفضلا عن ذلك فهي، كما قيل آنفا، طبقة نامية بشدة. ولكن الامر لا يقتصر على هذا فقط. ان ظروف الانتاج نفسها، وظروف حياة العمال تجعلهم قادرين على أعلى تنظيم. فالبرجوازية

بانشائها صناعة كبيرة قد ساقت العمال الى المدن الكبيرة وجمعتهم في معامل ومصانع جبارة. والعمال يشتغلون سوية، وبجماعات كبيرة. وبسبب هذا يبدأون أسهل من اي طبقة وفئة اجتماعية اخرى بالاحساس بضرورة الاتحاد والتنظيم. ويتخلصون من نفسية الانفراد والانانية، والضعف، وحكم القدر. ويصل الى وعيهم اكثر فاكثر أنهم ضعاف في كل بمفرده، ويؤلفون سوية قوة لا تغلب. كما يخلق تطور وسائل وطرق المواصلات بين المدن والاماكن المختلفة اتصال عمال هذه المدن والاماكن ايضا. ويوقن البروليتاريون بان ظروف عملهم وحياتهم في كل مكان متشابهة في ثقلها، وأنهم مقاومون من نفس الطبقة المستغلة في كل مكان، وينشأ عند العمال ويقوى الوعي بوحدة مصالحهم واهدافهم، الوعي الطبقي. وفضلا عن ذلك فان المواقع التي تحتلها الطبقة العاملة في الانتاج، وفي حياة المجتمع تجعلها الطبقة الكبرى بين الطبقات المضطهدة في كفاحيتها وجبروتها.

ان الاشتراكية العلمية هي أرفع انجاز للفكر الانساني، وحصيلة تطور النظريات المتقدمة الفلسفية والتاريخية والاقتصادية. والبروليتاريـا المستغلة

الخائضة في المجتمع الرأسمالي نضالا يوميا شاقا من اجل البقاء، والمُبعدة عن التعليم والعلم لا تستطيع ان تضع بمفردها، وبقواها الخاصة فقط ايديولوجية اشتراكية علمية. فيضعها ممثلو الفئات المتعلمة من المجتمع ـ المثقفون، ويدخلونهـا في الحركة العمالية، فتصل الى الطبقة العاملة من الخارج. ومع ذلك فان الطبقة العاملة تستوعب النظرية الاشتراكية بسهولة. فان الظروف الحياتية للبروليتاريا تساعدها على ادراك وضعها الخاص في المجتمع، ومصالحها الطبقية. وهي تجعلها الاكثر اقتدارا على أن تتلقى النظرة الثورية المتقدمة، وان تربي في نفسهـا على خبرة العمل والنضال وعيا سياسيا عاليا. والعمال اكثر موضوعية، واكثر تحررا من المبادئ الشائخة الراكدة، والآراء المتحيزة من ممثلي الفئات الاخرى في المجتمع. وحياة البروليتاريين نفسها تحررهم من كثير من الافكار الواهمة. والعامل بتعبيره عن الاحتجاج على وضعه المضطهد يقضي على الرياء البرجوازي الذي يغطي جوهر المجتمع الرأسمالي، وفي هذا الاحتجاج يكشف العامل عن خصاله الاكثر جاذبية، والاكثر نبلا، والاكثر السامية.

والطبقة العاملة ليست وحيدة في النضال من اجل تحقيق رسالتها التاريخية العالمية ـ القضاء على الرأسمالية، واستبدالها بالاشتراكية. فهي ليست وحدها صاحبة المصلحة في ازالة النير الاستغلالي. ففي المجتمع البرجوازي توجد ايضا طبقات وفئات من الشغيلة تعاني ايضا من تحكم المستغلين ـ طبقات وفئات تطابق مصالحها الحياتية مصالح الطبقة العاملة ـ الفلاحون العاملون، والحرفيون، والتجار الصغار والمشتغلون في العمل الفكري ـ المهندسون، والتكنيكيون، والمدرسون، والاطباء، والفنانون، والمستخدمون، الخ.. وهذه الفئات من المجتمع لا تستطيع بمفردها أن تتحرر من الاضطهاد، ولكنها تستطيع ان تكون حليفة، ومساعدة للبروليتاريا في كفاحها العظيم.

والطبقة العاملة بتحرير نفسها من العبودية الرأسمالية تحرر المجتمع كله ايضا من الاضطهاد وهي تأخذ على عاتقها وظيفة مساعدة جميع الشغيلة على التحرر من الاستغلال دون ان تطلب لنفسها اية امتيازات من الفئات الاخرى.

وقد جاء في «بيان الحزب الشيوعي»: «وكانت الحركات التاريخية الى يومنا هذا كلها حركات قامت بها اقليات او جرت في مصلحة الاقليات. اما حركة البروليتاريا فهي حركة قائمة بذاتها للاكثرية الساحقة في سبيل مصلحة الاكثرية الساحقة. والبروليتاريا، التي هي طبقة سفلى في المجتمع الحالي لا يمكنها ان تهب وتقوم عودها الا اذا نسفت كل الطبقات المتراكب بعضها فوق بعض والتي يؤلف المجتمع الرسمي» *.

الطابع الاممي
للحركة العمالية

تظهر مؤلفات ماركس وانجلس كيف ان تطور القوى المنتجة مع ظهور العلاقات الرأسمالية قد أدى الى أن اقتصادا عالميا قد بدأ بالتكوّن، وصلات اقتصادية لاقطار منفردة قد شملت العالم كله، وفي

* ماركس وانجلس. «بيان الحزب الشيوعي»، الطبعة العربية، موسكو، ص ٨١ــ٨٢.

اثر هذه الصلات الاقتصادية اصبحت تنمو بسرعة صلات ثقافية وصلات شتى بين الاقطار والشعوب. «ومكان الانعزال المحلي والوطني السابق والاكتفاء الذاتي، تقوم بين الامم صلات شاملة وتصبح الامم متعلقة بعضها ببعض في كل الميادين» *.

والطبقة العاملة هي المعبرة عن النزعة التقدمية لتطور البشرية الى عائلة للشعوب عالمية متصادقة، الى التغلب على العداء والخصام، والتفرد، والتباعد في العلاقات بين الشعوب.

ان ملكية المستغلين الخاصة لوسائل الانتاج هي الشيء الرئيسي الذي يقسم الناس، ويثير السعي الى استعباد شعوب الاقطار والقوميات الاخرى، ويؤجج الحروب والعداء بين الامم. والقضاء على العلاقات الاستغلالية، وبناء مجتمع اشتراكي — أي ما يؤلف الرسالة التاريخية العالمية للطبقة العاملة — هو بالذات الطريق الوحيد نحو اقامة مساواة تامة، وصداقة لا انفصام لها بين جميع الشعوب.

---

* ماركس وانجلس. «بيان الحزب الشيوعي»، الطبعة العربية، موسكو، ص ٦٥.

«ازيلوا استثمار الانسان للانسان، تزيلوا استثمار امة لاخرى.

وعندما يزول تناحر الطبقات في قلب كل امة يزول في الوقت نفسه العداء والحقد بين الامم» *.

وليس للطبقة العاملة مصالح تثير العداء نحو الشعوب الاخرى. بل، بالعكس، ان المصلحة الجذرية لعمال جميع الاقطار وهدفهم - وهو الاطاحة بالنير الرأسمالي - متفقان. ولهذا فان البروليتاريا هي قوة عالمية تناضل ضد قوة رأس المال العالمية. ان الاممية، والتضامن العالمي، ووحدة عمل شغيلة جميع الاقطار كان هذا ضرورة، وشرط الزامي للنجاح في كفاحهم من اجل الاشتراكية. وليس من الممكن الانتصار على الرأسمالية العالمية واقامة الاشتراكية العالمية دون النضال الموحد لعمال جميع الاقطار.

وتسعى الحركة العمالية الطبقية عن وعي الى الوحدة العالمية، وتعاون الشغيلة. وهي تضع المصالح العامة للطبقة العاملة العالمية فوق المصالح الخاصة المحلية القومية الضيقة. ويتمثل الاساس الاممي

---

* ماركس وانجلس. «بيان الحزب الشيوعي»، الطبعة العربية، موسكو، ص‌ص ٩٨-٩٩.

للعلاقات بين الفصائل الوطنية للطبقة العاملة في أنها تسعى الى تحقيق الوحدة والتوافق في اعمالها، وتقدم بعضها الى بعض العون المتبادل والتأييد المتبادل، ويهب بعضها الى نصرة الآخر. وفي نفس الوقت لا يمكن لهذه العلاقات ان تقوم الا على اساس اختياري، وتنطلق من الاعتراف باستقلال الفصائل الوطنية للطبقة العاملة، ومن الاعتراف بالحق في الحل الحر المستقل لقضاياها الخاصة. فان المساواة التامة في الحقوق، واحترام مصالح عمال مختلف الامم يستطيعان وحدهما العمل على تعميق الثقة المتبادلة، والسعي الى التعاون. واية محاولة لتأجيج الاهواء القومية، واستبدال الموقف الطبقي بالموقف العنصري، تعادي جذريا مصالح شغيلة جميع الاقطار، ولا تمت بصلة الى الاشتراكية العلمية. والامبرياليون وحدهم ينتفعون باظهار القضية وكانما ليس وضع الناس الاجتماعي، ولا انتماؤهم لهذه الطبقة او تلك هو الذي يحدد هدف نضالهم ومهماتهم، بل لون البشرة، او النسب القومي. ان الشعار الخالد لماركس وانجلس «يا عمال العالم، اتحدوا!» يعبر عن مبدأ لا ينقض، مبدأ اممية الحركة العمالية الطبقية.

أثبت ماركس وانجلس ان الطبقة العاملة تستطيع أن تحقق رسالتها التاريخية وتقوم بالتحويل الثوري للمجتمع الرأسمالي الى مجتمع اشتراكي فقط بشرط أن تؤسس حزبا سياسيا مستقلا. ان مؤسسي الاشتراكية العلمية اللذين لم يكونا فقط عالمين عظيمين، بل ومنظمين عظيمين ايضا للنضال الثوري عملا عقودا من السنين على تأسيس وتقوية حزب للطبقة العاملة. وفي ١٨٤٧ أسسا اول منظمة شيوعية «عصبة الشيوعيين». وقد نشر «بيان الحزب الشيوعي» المشهور كوثيقة منهجية لـ«عصبة الشيوعيين». وفي عام ١٨٦٤ اسست بمبادرة من ماركس وانجلس «جمعية العمال العالمية» (الاممية الاولى) التي هيات الظروف لتاليف الاحزاب العمالية في جميع الاقطار الرأسمالية.

وكانت قد وضعت في «بيان الحزب الشيوعي» المبادئ الاساسية لسياسة حزب الطبقة العاملة. وجاء في «البيان» أن هذا الحزب ليست له مصالح منفصلة عن مصالح البروليتاريا ككل. وفي كفاح

بروليتاريي الاقطار المختلفة يدافع هذا الحزب عن المصالح العامة لكل البروليتاريا بغض النظر عن القومية. ويمر نضال البروليتاريا ضد البرجوازية بمراحل مختلفة من التطور، الا أن الحزب البروليتاري الطبقي حقا هو في جميع هذه المراحل ممثل الحركة ككل. والحزب في نضاله من اجل اقرب اهداف ومصالح الطبقة العاملة يدافع في نفس الوقت في حركة اليوم الراهن عن مستقبل الحركة ايضا. والحزب في نشاطه لن يغرب عن باله الهدف النهائي للحركة العمالية ــ بناء مجتمع بلا طبقات. ولهذا فان الشيوعيين ــ كما جاء في «بيان الحزب الشيوعي» «هم اذن، من الناحية العملية، احزم فريق من احزاب العمال في جميع البلدان واشدها عزيمة، الفريق الذي يدفع الى الامام كل الفرق الاخرى. وهم من الوجهة النظرية يمتازون عن بقية البروليتاريين بادراك واضح لظروف حركة البروليتاريا وسيرها ونتائجها العامة» *.

---

* ماركس وانجلس. «بيــــان الحزب الشيوعي»، الطبعة العربية، موسكو، ص ٨٦.

وحزب البروليتاريا الثوري يساند في كل مكان اية حركة ثورية موجهة ضد النظام الاستغلالي الاجتماعي والسياسي. وهو في كل مكان يسعى الى الاتحاد والاتفاق بين الاحزاب الديموقراطية لجميع الاقطار.

وقد طور فلاديمير ايليتش لينين في الظروف التاريخية الجديدة استنتاجات ماركس وانجلس عن الحزب الثوري للطبقة العاملة، وعن تنظيمه وسياسته. فخلق تعاليم متقنة عن الحزب البروليتاري، وثبت دوره القيادي بالنسبة للطبقة العاملة وجميع الشغيلة، ووضع مبادئ حياته الداخلية، واسس سياسته.

واظهر لينين أن البروليتاريا لا تملك سلاحا آخر في النضال من أجل السلطة غير التنظيم. وصفوف الطبقة العاملة في العالم البرجوازي متفرقة، يشققها التنافس الفوضوي، والبروليتاريون مثقلون بالعمل القسري في صالح الرأسمالي، والنظام الاستغلالي يلقي بهم دائما في حضيض الفقر التام والتوحش والانحطاط. ويمكن أن تصبح البروليتاريا، وتصبح حتما، قوة لا تقهر فقط شرط أن تبلغ توحيدها الفكري على اساس مبادئ الاشتراكية العلمية، وشرط أن يكون هذا

التوحيد الفكري معززا بالوحدة المادية للتنظيم الذي يرص ملايين الشغيلة في جيش الطبقة العاملة*.

والحزب هو **الفصيلة الطليعية، وأعلى شكل** للتنظيم الطبقي للبروليتاريا. ومن بين جميع المنظمات التي كونتها الطبقة العاملة (النقابات، وصناديق العون المتبادل، واتحادات الشبيبة والاتحادات التعاونية، الخ.) يستطيع الحزب السياسي للبروليتاريا وحده ان يعكس بشكل صحيح المصالح الاساسية للطبقة العاملة، ويضمن نصرها التام. والحزب السياسي كتنظيم من أعلى طراز لا يقتصر على النضال من اجل تلبية الحاجات الآنية للشغيلة، – انه يستهدف ايصال الطبقة العاملة للسلطة للقيام بتحويل ثوري للمجتمع.

والحزب البروليتاري باعتباره الفصيلة الاكثر **وعيا** للطبقة العاملة يوحد، ويربي، وينظم البروليتاريا وكل الشغيلة، ويعلمهم فهم مصالحهم، ووضعهم، وانتهاج سياستهم. ويحصل العمال المتقدمون في صفوف حزبهم على المعارف النظرية، والخبرة السياسية، وكلها – المعارف والخبرة – ضرورية لقيادة جميع

---

* لينين. المؤلفات، المجلد ٧، ص ٣٨٣.

اشكال النضال الطبقي للبروليتاريا. والحزب البروليتاري كتنظيم للعناصر المتقدمة لطبقته، مسلح بنظرية علمية ثورية قادر على مقاومة الترددات والاهواء، وتقاليد المجتمع القديم التي تبقيها في الجماهير كل ظروف النظام الاستغلالي، والدعاية البرجوازية، ومحاولات الرأسماليين شق الشغيلة. وهو يبرز كطليعة الطبقة العاملة، ومعلم، وموجه، وقائد جميع الشغيلة والمستغلّين – سواء في النضال من اجل اسقاط الرأسمالية او في قضية بناء حياتهم الاجتماعية بلا برجوازية وضد البرجوازية.

والحزب الماركسي هو **تجسيم لصلة** الفصيلة الطليعية مع الملايين من **جماهير** الطبقة العاملة. وهو طبقي بطبيعته، وله في نفس الوقت جذور عميقة ليس بين البروليتاريا وحدها، بل في فئات الشعب الاخرى ايضا. واعضاؤه عمال، فلاحون، مشتغلون في العمل الفكري، انـاس بسطـاء من الشعب. الا أنهم يتميزون بوعي كبير، وصلابة فكرية، وبالتالي بثورية كبيرة ايضا، وبالاستعداد لتحمل اية مشقة في سبيل الفكرة العليا التي اتحدوا من اجل تحقيقها. وهم يهتمون بمصالح الشعب. ويعنى الحزب دون

ككل بمضاعفة وتشديد صلاته مع الجماهير وكسب ثقة طبقته. ويصبح قائدا حقيقيا للجماهير لا لمجرد أنه ينادي بدوره القيادي، بل لانه يعرف حاجات الشغيلة، ويعبر عن صدق ويدافع عن مصالحهم، ويوقنهم بصحة دعواه، وقابلياته لأن يكون قائدا، وهذا ليس بالكلمات وحدها، بل بالافعال قبل كل شيء، وبالسياسة، والمبادرة، والتفاني.

ويعتبر الحزب من واجبه أن يعمل في كل مكان يوجد فيه شغيلة – يعمل في جميع المنظمات، ووسط الجماهير غير المنظمة ويجد الطريق الى اكثر فئات الشغيلة تخلفا وتأخرا، ويقدر على التحدث معهم، ويقترب منهم، وينهض بهم في صبر الى الوعي الثوري. ويجب على الحزب في عمله مع الجماهير أن يعنى دائما بأن لا تتحول تعاليمه الى عقيدة جافة، الى تلقين تلمذي، اذ ان تربية الجماهير لا تجري عن طريق الكتب وحدها، بل بشكل اساسي، من خبرة كفاحها الحياتي اليومي الذي يشترك الحزب فيه. فقيادة الجماهير ممكنة فقط بحسبان تجربتها، ومستوى وعيها، ودون انفصال عن الواقع، ودون استعجال الخطى. ولكي تصمم الجماهير على النضال لا تكفي

النداءات وحدها، ولو كانت اكثرها ثورية: بل تجب الخبرة السياسية الخاصة للجماهير، واقتناعها بضرورة العمل كما يشير الحزب. ولكن الحزب بحسابه لمستوى وعي الجماهير يجب أن لا يقتدي بالتخلف، ويترك مجرى الحوادث الى تحكم العفوية. ان الحزب الماركسي ينطلق في عمله من الحياة ولا يختلق مشاريع وبرامج خاصة لا صلة لها في الواقع يسير، في نفس الوقت، امام الحركة العفوية، ويدلها على الطريق. وهو يستطيع أن يحقق هذه المهمة لأنه يعمم خبرة طبقته، والشعب كله، ويتفهمها على ضوء دروس التاريخ، والخبرة العالمية، ونظرية الاشتراكية العلمية، ويكشف عن النزعات التي لم تكشف عن نفسها كليا، ولكن المستقبل يعود لها، ولهذا يستطيع أن يقترح في الوقت المناسب حل المشاكل التي تشغل بال الشعب.

ولا يستطيع الحزب قيادة الجماهير وتعليمها الا في حالة تعلمه هو من الجماهير، أي اذا كان يدرس باهتمام ما يتولد في التطبيق الشعبي، ويستوعب الحكمة الجماعية للشعب. التعلم من الجماهير لتعليم الجماهير ـ هذا هو مبدأ القيادة التي تسير عليه

الاحزاب الثورية المنطلقة من تعاليم الاشتراكية العلمية.

وحتى الحزب الذي يملك أرفع مكانة بين الجماهير يمكن أن يفقدها حين يكف عن الاهتمام بمضاعفة هذه المكانة، وبأن تكون سياسته وتدابيره متمتعة بتاييد الجماهير. ولا يمكن للحزب أن يبرز كمعلم لا يخطئ ابدا، انه يتحدث مع الجماهير بصراحة دون أن يخفي الاخطاء المرتكبة ومواطن الضعف، ومصاعب الموقف. وللحزب مصلحة حية في أن تشترك الجماهير بنشاط في مناقشة وحل جميع قضايا الحياة والكفاح.

وحزب الطبقة العاملة غير متسامح في موقفه من الرأسمالية، وهو يتميز بالثورية العالية ووحدة الكلمة والعمل، ومزج النظرية الثورية للاشتراكية العلمية بالتجربة الثورية لكفاح من أجل القضاء على النظام الاستغلالي، وفي سبيل التحويل الاشتراكي للمجتمع.

ويحدد الطابع الثوري للحزب مبادئ تنظيمه، وقواعد حياته الداخلية، وتراصه، ووحدة اعماله، ومرونة تاكتيكه.

ولكي يعبر الحزب بصدق عن مصالح طبقته،

ويكون له تنظيم متين متراص قادر على احراز النجاحات في الكفاح ضد العدو الطبقي، في الكفاح من اجل تكوين مجتمع جديد، يجب أن يبنى على أسس **المركزية: ان** تكون له قيادة مركزية واحدة، وضبط واحد، وواجب لجميع اعضائه، وأن يراعي مبدأ خضوع الاقلية للاكثرية، والمنظمات السفلى للعليا. فبمراعاة هذه الشروط وحدها يستطيع الحزب أن يصبح الحزب المعبر عن الارادة الموحدة للبروليتاريا، وأن يوفق ويوحد كثرة الاعمال المنفردة في النضال العام، ويوحد جميع القوى، ويوجهها انحو هدف واحد.

الا ان حزب الطبقة العاملة منظمة اختيارية، واتحاد اختياري لاصحاب عقيدة واحدة مكرسين انفسهم للنضال من أجل القضاء على النظام الاستغلالي وبناء مجتمع اشتراكي. ولهذا لا يمكن أن تخلق الارادة الموحدة العامة في الحزب الا بالطريق الديموقراطي، أي بشكل مشترك وجماعي. ويجب أن يهتم الحزب دائما بان يكون نشاط جميع اعضائه في ارتفاع دائم، وان يساهموا جميعا في مناقشة أهم قضايا الحياة الحزبية. وفي مجرى هذا النقاش

تظهر وتتقابل آراء واقتراحات مختلفة، وتجربة مختلفة، ثم تتخذ قرارات ملزمة للجميع. ولهذا فان مركزية حزب من طراز جديد انما هي مركزية **ديموقراطية**، تعتمد على اتفاق، وارادة الجماهير الواسعة من اعضاء الحزب. وتستلزم المركزية الديموقراطية في التنظيم الحزبي الى جانب متطلبات الضبط الصارم وخضوع الاقلية للاكثرية والمنظمات السفلى للعليا، تستلزم انتخاب جميع الهيئات القيادية للحزب من الاسفل الى الأعلى، والظهور الدوري للهيئات الحزبية امام المنظمات المنتخبة لها لتقديم التقارير عن اعمالها، وبهذه الطريقة، حق اعضاء الحزب في مناقشة جميع المسائل، ومراقبة تنفيذ القرارات المتخذة، وانتخاب القادة، ومعرفة وتدقيق نشاطهم.

وفضلا عن ذلك يطلب الحزب من جميع اعضائه، الخضوع للقرارات التي اتخذت، وتنفيذها عن اخلاص. ان محاولات تنظيم تجمعات وكتل في الحزب لمعارضة السياسة التي وضعت بشكل جماعي، ولمعارضة القرارات التي وافقت عليها غالبية الحزب، لا تتفق مع الضبط الحزبي، ومع نفس طابع الحزب

من طراز جديد المدعو الى ترأس نضال الشغيلة، ولا تتفق مع مسؤوليته امام الطبقة العاملة، وشعب بلاده، والحركة التحررية العالمية.

لقد كرس لينين لتكوين الحزب سنين عديدة من كفاحه وعبقريته كمفكر ومنظم معتبرا الحزب قوة يمكن في مساعدتها فقط تحويل المجتمع. وكان حزب البلاشفة الذي أسسه لينين قائد الطبقة العاملة وجميع شغيلة روسيا في ثورة اكتوبر الاشتراكية الكبرى. وتحت قيادة الحزب أقيم في الاتحاد السوفييتي أول مجتمع اشتراكي في العالم نما في ظروف معقدة وصعبة دولية وداخلية.

٤ ـ الثورة الاشتراكية

ماركس وانجلس
حول ضرورة الثورة الاشتراكية

يجرى استبدال اسلوب معين من الانتاج، نظام اجتماعي معين بآخر نتيجة للنضال الطبقي. ويكتسب هذا النضال حدة خاصة عند تغيير آخر

نظام استغلالي. والانتقـال من الرأسمالية الى الاشتراكية ممكن فقط بنتيجة أحد نضال طبقي للطبقة العاملة ضد البرجوازية، بنتيجة الثورة الاشتراكية. من الناحية الأخرى فان تطور التناحرات الطبقية في المجتمع الرأسمالي يجعل هذه الثورة حتمية.

وقد نبذ ماركس وانجلس افكار الاشتراكيين الطوباوين الزاعمة بان في الامكان الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية عن طريق تثقيف المستغلين واقناعهم. ان البروليتاريا لكي تحصل على امكانية بناء المجتمع الاشتراكي يجب أن تفوز بالسلطة، وتنتزعها من الرأسماليين واصحاب الاطيان.

وتفهم نظريـة الاشتراكيـة العلمية **الثورة الاشتراكية** بالمعنى الواسع للكلمة كمجمل التحولات السياسية والاقتصادية المؤدية الى القضاء التام على الرأسمالية، والى بناء الاشتراكية. وانها تبدأ بانقلاب سياسي – اسقاط سلطة الرأسماليين، واقامة سلطة الشغيلة. وهذا الانقلاب السياسي يسمى ايضا **بالثورة البروليتارية.**

وقد أظهر ماركس وانجلس أن تطور العلاقات الاقتصادية والاجتماعية في عهد الرأسمالية يهيئ في

نفس الوقت الظروف لتحقيق الثورة الاشتراكية. ان القوى المنتجة وليدة المجتمع الرأسمالي، وكذلك نظام توزيع الخيرات الذي اقامه، قد وصلت الى تناقض صارخ مع هذا الاسلوب من الانتاج نفسه، وتجاوزت في نموها أُطره، ويجب أن تحطمها حتما. لقد اصبحت وسائل الانتاج والانتاج نفسه اجتماعية في الجوهر، الا أنها لا تزال خاضعة لشكل التملك الخاص. وقد كتب انجلس في مؤلفه «ضد دوهرينغ» ان «**التناقض بين الانتاج الاجتماعي، والتملك الراسمالي يظهر على السطح كتناحر بين البروليتاريين والبرجوازيين**». ودلّل ماركس وانجلس باقناع على أن المستوى الذي وصلت اليه الرأسمالية من تطور القوى المنتجة يخلق امكانية ازالة الفروق الطبقية مرة والى الأبد لصالح تقدم المجتمع كله. لقد خلقت الصناعة البرجوازية الكبيرة البروليتاريا «الطبقة التي تستطيع لأول مرة في التاريخ أن ترفع مطلب القضاء لا على هذه المنظمة الطبقية المعينة أو تلك، ولا على هذا الامتياز الطبقي المعين أو ذاك، بل القضاء على الطبقات عموما» (انجلس، «ضد دوهرينغ»).

تطوير لينين
لنظرية الثورة الاشتراكية

أنطلق ماركس وانجلس من ظروف رأسمالية ما قبل الاحتكار، واستخلصا أن الثورة لا يمكن ان تنتصر في قطر واحد. والثورة الاشتراكية، حسب استنتاجهما، ستحدث في وقت واحد في جميع الاقطار المتحضرة، أو على أقل تقدير، في غالبية الاقطار المتطورة.

وكان هذا الاستنتاج مطابقا للوضع التاريخي لذلك الزمن. الا أن ظروف التطور العالمي في بداية القرن العشرين قد تغيّرت بشكل كبير للغاية. دخلت الرأسمالية في مرحلتها الاخيرة — مرحلة الرأسمالية الاحتكارية، الامبريالية، وتحولت، حسب مواصفات لينين، الى نظام عالمي للاضطهاد الاستعماري، والخنق المالي للغالبية الساحقة من سكان الارض من قبل حفنة من الاقطار «المتقدمة».

وفي هذا العصر تصل كل تناقضات الرأسمالية الى الدرجة القصوى من الاشتداد.

أشتد التناقض الى الغاية القصوى بين العمل والرأسمال، وبين الطبقة العاملة والبرجوازية نتيجة لكون استغلال العمال في عهد الامبريالية يتخذ أقسى الاشكال. يتضاءل باطراد نصيب العمال من الثروات الوطنية التي يصنعها عملهم. وفي الركض وراء اكبر ربح تشدد الاحتكارات الرأسمالية بواسطة الدولة البرجوازية ضغطها على الشغيلة، وتنتزع منهم الحقوق السياسية والاقتصادية المبتورة حتى دون هذا، وتزرع الديكتاتورين الدموين. وتستغل الاتحادات الكبرى لاصحاب العمل بلا رحمة لا العمال وحدهم، بل والجمهور الاساسي من الفلاحين والحرفيين، وصغار التجار، والفئات السفلى والمتوسطة من المستخدمين.

ان حدة التناقضات بين الدول الامبريالية المنفردة، او بين تكتلاتها قد اشتدت.

ان الامبرياليين يتصارعون فيما بينهم على تقسيم عالم تمّ تقسيمه - على المستعمرات واسواق تصريف البضائع، وعلى مصادر الخامات الرخيصة. ويؤدي هذا الى الحروب الامبريالية، الى الحروب العالمية التي تجلب للشعوب ويلات مريعة جديدة، ويجعل الشعوب تحت خطر الابادة، مع وجود

الوسائل الحديثة لحوض بالحرب. الا أن الصراع بين الدول الامبريالية، والحروب التي تنشأ بينها، تعمق أكثر كراهية الشغيلة للرأسماليين، وتضعف الامبريالية، وتزعزع أسس النظام الرأسمالي، وتسهل امكانية التطويح الثوري بسلطة البرجوازية.

كما اشتدت بشكل لا يقبل التوفيق التناقضات بين حفنة من الدول الامبريالية من ناحية، وبين اقطار عديدة مستعمرة وشبه مستعمرة حيث يستعبد مئات الملايين من الشغيلة، من الناحية الاخرى.

وبعد أن بيّن لينين الحدة القصوى لجميع التناقضات في عهد الامبريالية استخلص أن هذه المرحلة هي آخر مرحلة من مراحل الرأسمالية. ووصف الامبريالية كرأسمالية متعفنة محتضرة، كعشية الثورة الاشتراكية. وكانت الحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٨) التي استخلص لينين في زمنها هذا الاستنتاج بداية أزمة عامة للرأسمالية. لقد نضج النظام الرأسمالي العالمي برمته للثورة الاجتماعية.

وانطلاقا من الوضع الجديد أعاد لينين النظر في فكرة ماركس وانجلس عن انتصار الاشتراكية بوقت واحد في جميع أو غالبية الاقطار الرأسمالية. ان التطور

الاقتصـــادي والسياسي للرأسمالية في المرحلـــة الامبريالية يجري بشكل متقطع على نحو خاص، وبوثبات. وبسبب هذا الأمر تنضج في وقت متفاوت ظروف الثورة ايضا في الاقطار المختلفة. ومن هنا ينبثق استنتاج لينين المهم: ان انتصار الثورة دفعة واحدة في جميع الاقطار غير ممكن، وبالمقابل يمكن انتصار الاشتراكية بالبداية في بعض الاقطار، وحتى فى قطر واحد مأخوذا على حدة.

وكان هذا الاستنتاج اكبر اسهام في تطوير نظرية الثورة الاشتراكية، وكانت له أهمية لا تقدر بثمن لانتصار الطبقة العاملة في كفاحها ضد الامبريالية. وانتج عن نظرية لينين أن الطبقة العاملة لكل قطر لا يمكن أن تسترخي في انتظار فرصة انتصار الثورة في وقت واحد في جميع الاقطار. واذا ما نضجت ظروف الثورة في قطر معين فان بروليتارياه لا تنتظر حتى مثل هذا الوضع في الدول الأخرى: انها تستفيد من كل الفرص لأخذ السلطة بيدها، ولتحقيق الانتقال الى الاشتراكية في بلادها. وهي بذلك تقوم بواجب أممي، وبالتزامها أمام رفاقها في الطبقة، وامام البروليتاريا العالمية. ويؤثر انتصار الثورة في قطر واحد تأثيرا

هائلا في الحركة العالمية، وهذا بدوره يعزز ويخفف وضع البروليتاريا المنتصرة. وفي ذلك يظهر التضامن العالمي للشغيلة. ومع انتصار الاشتراكية في قطر واحد تنشأ قاعدة لتقوية وتطوير الحركة الثورية العالمية، ولمساندة ومساعدة البروليتاريا، والجماهير الشعبية في الاقطار الأخرى.

وانتهى لينين ايضا الى استنتاج هو أنه ليس من الحتمي في الظروف التي اصبحت فيها الامبريالية نظاما عالميا أن تقوم الثورة في أكثر الاقطار الرأسمالية تطورا. ان سلسلة الامبريالية ستتحطم في المكان الذي توجد فيه أضعف حلقاتها، في المكان الذي تظهر فيه أحدّ التناقضات الرأسمالية، في المكان الذي تكونت فيه قوى الثورة. كما لا تتطلب الثورة الاشتراكية ان تتحول البروليتاريا الى غالبية السكان. يلزم مستوى معين من تطور الرأسمالية، ووجود البروليتاريا وحزبها القادرين على قيادة جماهير الشغيلة غير البروليتارية، وبالدرجة الأولى الفلاحين. ولن تكون الثورة عملا واحدا أو معركة واحدة. انها عهد كامل من المعارك الطبقية (الاقتصادية، والسياسية، والايديولوجية). وستتألف العملية الثورية العالمية من سلسلة معارك تخوضها

جميع الطبقات المضطهدة والمستاءة، وجماعات وعناصر السكان، وقبل الجميع البروليتاريا وحلفاؤها الفلاحون، ضد الطبقات المسيطرة، من حركة الجماهير البروليتارية ضد نير أصحاب الاطيان، والنير البرجوازي والقومي واشكال النير الاخرى، من انتفاضات الشعوب المستعمرة، ومن الانواع الاخرى للنضال الجماهيري. ومهمة البروليتاريا هي ان ترأس جميع هذه الانتفاضات والحركات لتوجيهها الى هدف واحد: الى اسقاط الامبريالية، وتحقيق الثورة الاشتراكية.

وقف لينين بحزم ضد انتهازيي الاممية الثانية الذين أخذوا يسايـرون ويتواءمون مع السياسـة الاستعمارية للامبريالية، وتذرعوا بحجج وهمية العلم لنظيراتهم «الاستعمار العمالي» و «الاستعمار الاشتراكي». ان الحركة الوطنية التحررية الموجهة ضد الامبريالية، كما بيـّن لينين، تزعزع نظام الظلم العالمي، وتوهنه، وبذلك تسهل على عمال الاقطار الاكثر تطورا النضال ضد الامبريالية. ومن الناحية الاخرى يضمن نضال العمال الثوري نجاح الكفاح التحررى للشعوب المظلومة. وقد توسع محتوى شعار «يا عمال العالم اتحدوا!». وعبر لينين في شعار «يا عمال العالم، ويا

ايتها الشعوب المضطهدة، اتحدوا!» عن فكرة اتحاد القوى المعادية للامبريالية في جميع الاقطار والقارات.

وكانت ثورة اكتوبر الاشتراكية العظمى ١٩١٧ اثباتا ساطعا لاستنتاجات لينين، وانتصارا للنظرية الماركسية - اللينينية عن الثورة الاشتراكية.

طرق معالجة قضية الثورة الاشتراكية وتحقيقها

تظهر نظريــة الاشتراكية العلمية أن الثورات الاشتراكية لا يمكن أن تثار بشكل مصطنع، أو تستورد من اقطار أخرى. ان الثورة تنضج في داخل مجتمع كل قطر، وتنمو من ازمات ناضجة موضوعيا.

وقد ابدع لينين نظرية الوضع الثوري. ومثل هذا الوضع يتميز بعلامات ثلاث اساسية: اولا، عدم امكانية الطبقات الحاكمة الاستمرار في سيطرتها بالشكل السابق. وقد كتب لينين في عام ١٩١٥: لكي تنفجر الثورة لا يكفي عادة «الا تريد القاعدة بعد الآن» ان تعيش كما في السابق، بل من المهم ايضا «الا

تستطيع القمة ذلك» *؛ ثانيا، يشتد اكثر من المعتاد فقر وبؤس جماهير الشغيلة بنتيجة الازمة؛ ثالثا، ارتفاع كبير في التذمر والسخط على تصرف السلطات السائدة، المعبر عنه بالانتفاضات الثورية النشيطة واعمال الجماهير الشعبية الواسعة.

هذه هي الشروط الموضوعية، أي التي لا تتوقف على ارادة اناس منفردين أو احزاب أو طبقات منفردة، الشروط التي تنشئ الوضع الثوري.

ولكن ليس كل وضع ثوري يتحول الى ثورة. فان من الضروري لهذا التحول، بالاضافة الى الاسباب الموضوعية، اسباب ذاتية ايضا، مقدرة واستعداد الطبقة المتقدمة للنهوض للاطاحة بالطبقات المسيطرة. وهذه الصفات يهيئها ويصيغها حزب الطبقة العاملة الواقف في مواقع النظرية الثورية ــ الماركسية.

ويتميز كل قطر عن الاقطار الاخرى بمستوى التطور الاقتصادي، والنسبة بين الطبقات، والتقاليد التاريخية. ولكل قطر خصائصه في تطور الحركة الثورية، وفي تكوّن الوضع الثوري . وفي كل قطر ينعكس بطريقة

---

* لينين. المؤلفات، المجلد ٢١، ص ١٨٩.

معينة تأثير الوضع الدولي، وحركـة التحرر الوطني. ولهذا لا تضع نظرية الاشتراكية العلمية مسبقا تخطيطا عاما ملزما لجميع الاقطار والشعوب. فان الحزب الثوري يجب أن يحسب حساب الظروف الفريدة في بلاده، والخصائص الخاصة لاقتصادها وسياستها وثقافتها وتقاليد حركتها العمالية والتحررية، وعادات ونفسية شعبها، الخ..

وفي نفس الوقت تشير نظرية الاشتراكية العلمية الى الطبيعة العامة، الى الأسس المشتركة للنظام الرأسمالي الاستغلالي في جميع الاقطـار والى قوانين تطـوره الاساسية المشتركة. ونظرا لذلك فـان استبدال الرأسمالية بالاشتراكية في جميع الاقطار انما هو من حيث اساسه عملية واحدة تبدأ من تحويلين اساسيين: ١) اقصاء الطبقات المستغلة من السلطة السياسية، واقامة سلطة الشغيلة الذين تقودهم الطبقة العاملة — ديكتاتورية البروليتاريا؛ ٢) تلغى ملكية الرأسماليين واصحاب الاطيـان وتقام ملكية اجتماعية لوسائل الانتاج الاساسية. وفي الامكان أن يجرى هذان التحويلان باشكال مختلفة، ولكن بدون تحقيقهما لا توجد ولا يمكن ان توجد اشتراكية. هناك قوانين عامة للحركة

نحو الاشتراكية لا تتوقف على الخصائص القومية. تستطيع الظروف الخاصة الفريدة لهذا القطر أو ذاك أن تغير الاشكال والاساليب التي تتحقق بها التحولات الثورية. ولكنها لا تستطيع أن تلغي القوانين العامة نفسها. ان الطريق الذي يسير فيه هذا القطر أو ذاك، نحو الاشتراكية، رغم كل سماته المميزة، لا يمكن أن يختلف مبدئيا، وبالرئيسي للغاية عن طرق الاشتراكية في الاقطار الاخرى. هناك اشتراكية واحدة حقيقية هي الاشتراكية العلمية التي اقامت مبادئ لبناء المجتمع الجديد عامة لجميع الاقطار والشعوب. وهذه المبادئ العامة تطبقها بشكل خلاق الاحزاب الثورية في الظروف الملموسة لاقطارهـــا، وهذا التطبيق الخلاق نفســه، والتجربة الثورية لكل قطر يغنيان بدورهما نظرية الثورة الاشتراكية، نظرية بناء المجتمع الجديد.

ومسألة السلطة هي مسألة رئيسية لكل ثورة. ان الثورات البرجوازية، في كل مكان حدثت فيه، نقلت السلطة من ايدي الاقطاعيين الى ايدي البرجوازية. وبهذه الطريقة انتقلت السلطة من طبقة مستغلة الى أخرى. والمهمة الاولى والرئيسية للثورة الاشتراكية

هي اطاحة بسلطة البرجوازية، ونقل السلطة الى ايدي الطبقة العاملة وحلفائها.

فبأي طريقة تحقق البروليتاريا هذه المهمة العظيمة؟ ان ذلك يتعلق كثيرا على الظروف التي تحدث فيها الثورة في هذا القطر او ذاك.

ان الطبقة العاملة وطليعتها - الاحزاب الثورية لها مصلحة في أن تحدث الثورة الاشتراكية بطريقة سلمية، ودون ضحايا، وبلا اراقة دماء، وبلا حرب اهلية. ولكنها في الوقت ذاته تضع في بالها دائما امكانية أخرى ايضا - الانتقال غير السلمي الى الاشتراكية. فحين تدافع الطبقات المستغلة بقوة السلاح عن امتيازاتها تقوم الطبقة العاملة بالثورة عن طريق الكفاح المسلح.

ان القوة يمكن أن تقهر بالقوة فقط. ويعلّم الحزب الثوري الطبقة العاملة الاستعداد للمعارك من اجل السلطة، وتجميع القوى، ورص حلفائها، واتقان كل وسائل واشكال الكفاح السلمية منها وغير السلمية.

ومهما يكن الشكل الذي يتم فيه الانتقال من الراسمالية الى الاشتراكية سلميا أو غير سلمي، فانه ممكن فقط عن طريق النضال الطبقي، والثورة الاشتراكية.

٥ ـ نظرية الاشتراكية والشيوعية

فترة الانتقال
من الرأسمالية الى الاشتراكية

ضرورة فترة الانتقال

تأخذ الطبقة العاملة السلطة لتستخدم سيطرتها السياسية للقضاء على الرأسمالية، وبناء الاشتراكية، الا أن بناء الاشتراكية غير ممكن دون تحويل جذري في الاقتصاد وكل العلاقات الاجتماعية.

ليست الثورات في تاريخ تطور المجتمع الانساني قليلة، الا أنها جميعا حتى انتصار الثورة الاشتراكية في روسيا في اكتوبر ١٩١٧ احتفظت بحرمة الملكية الخاصة لوسائل الانتاج، ولم تغير الا مالكيها. وما دامت توجد في المجتمع طبقة مالكة لوسائل الانتاج وطبقة لا تملكها فان استغلال الانسان للانسان باق.

وتمتاز الثورة الاشتراكية عن جميع الثورات التي حدثت من قبل بانها تلغي السبب الذي أدى الى انقسام المجتمع الانساني الى اغنياء وفقراء، الى مضطهِدين ومضطهَدين ـ الملكية الخاصة لوسائل

الانتـاج. وبنتيجة الثورة الاشتراكية تتحول الارض والمصانع والمعامل والبنوك والطرق الحديدية، والمخازن الكبيرة، التي كانت عائدة الى الرأسماليين واصحاب الاطيان الى ملكية للشعب كله. ويصبح الشغيلة انفسهم اسياد الحياة.

ان الثورة الاشتراكية على هذا النحو هي انقلاب في حياة المجتمع اعمق بكثير من أي ثورة سابقة. ولهذا فان الاسلوب الاشتراكي في الانتاج، خلافا لكل الاساليب السابقة، لا يمكن أن يتكوّن بنفسه وبشكل عفوي في بطن المجتمع القديم. ان الاشتراكية لا يمكن ان تنشأ رأسا، وبشكل جاهز في اليوم التالي من انتصار الثورة. ويقتضي انشاؤها نشاطا واعيا واضح الهدف من جانب الطبقة العاملة الموجودة في السلطة وحلفائها.

وفي كل قطر يتطلب التحول الاشتراكي في الاقتصاد وفي حياة المجتمع كلهـا فترة انتقالية. ان الثورة الاشتراكيـة تجرد الطبقـات المستغلة من السلطـة السياسية، وتنقل السلطة الى ايدي الشغيلة بقيادة الطبقة العاملة. وتبدأ فترة الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية حين تكون الرأسمالية قد طوّح بها فعلا، ولكن لم يقض عليها كليا، والطبقات المستغلة

المجردة من السلطة لا تتوقف عن النضال حين تتحقق التحولات الاشتراكية، ولكن الاشتراكية لم تبن بعد. انها فترة نضال بين الرأسمالية المحتضرة، والمجتمع الوليد الجديد، فترة تكون واقامة هذا المجتمع.

ديكتاتورية البروليتاريا

كتب كارل ماركس في مؤلفه «نقد برنامج غوتا» (١٨٧٥): «بين المجتمع الرأسمالي والمجتمع الشيوعي تقع مرحلة تحول المجتمع الرأسمالي تحولا ثوريا الى المجتمع الشيوعي. وتناسبها مرحلة انتقال سياسي لا يمكن ان تكون الدولة فيه سوى **الديكتاتورية الثورية للبروليتاريا**»*.

فما هي ديكتاتورية البروليتاريا؟

ان ديكتاتورية البروليتاريا هي سلطة الشغيلة تحت قيادة البروليتاريا، وهدفها بناء الاشتراكية.

هل تستطيع الطبقة العاملة أن تنتصر كليا على

---

* ماركس. «نقد برنامج غوتا»، الطبعة العربية، موسكو، ص ٣١.

البرجوازية، وتبني الاشتراكية دون ان تقيم ديكتاتوريتها؟ ان تجربة التاريخ اثبتت أنها لا تستطيع. عندما تأخذ الطبقة العاملة السلطة في يديها تتابع جميع الطبقات المستغلة التي فقدت السلطة والثروات النضال القاسي من اجل كل ما فقدته، وهي لا تتخلى عن الامل في عودة النظم القديمة، لأنها تظل محتفظة لنفسها بقوة كبيرة زمنا طويلا. فمن اي شيء تتألف قوتها؟

اولا، ان البرجوازية بعد أن تنهزم في قطر واحد تعتمد وليس بدون اساس على معونة رأس المال العالمي، والطبقات المستغلة الموجودة في السلطة في الدول الاخرى. ومعروف، مثلا، أن ١٤ دولة ساعدت اصحاب الاطيان والرأسماليين في روسيا في حربهم ضد العمال والفلاحين المنتصرين.

ثانيا، ان انتصار الثورة الاشتراكية لا يعني ان المستغلين يجردون رأسا من كل الثروات اذ يبقى عندهم المال وبعض الملكية. وهم يعتمدون على النظرات والعادات والاخلاق القديمة التي تظل ملتصقة بوعي الناس، ويحاولون أن يجروا الى جانبهم اصحاب الملكية الصغار: الفلاحين والحرفيين، ويستخدمون كل الاوباش

حتى المجرمين الجنائيين، ويعيقون تنظيم الاقتصاد الى غير ذلك.

واخيرا، ان ممثلي الطبقات المستغلين أحسن تعليما. ولهم خبرة في ادارة الانتاج وتنظيمه، وفي الفن الحربي. ويحتفظ المستغلون بصلات مع المثقفين - المهندسين، والكتاب، والمعلمين والصحفيين، وعن طريقهم يحاولون التأثير سياسيا في الجماهير.

وكل هذا يتطلب من الطبقة العاملة اقامة سلطة قوية حازمة ترغم عند الضرورة على أن يحسب له حسابها، ويخضع لمطاليبها. وعلى هذا النحو يجب أن تكون ديكتاتورية البروليتاريا قبل كل شيء لقمع مقاومة الطبقات المستغلة المسقطة، ولنقل الارض والمصانع والمعامل والمناجم، والطرق الحديدية ووسائل الانتاج الاخرى الى الشعب، وللدفاع عن المكاسب الثورية وتعزيزها ضد محاولات عدوان الاعداء الخارجيين، ولتنظيم بناء الاشتراكية.

ان الشغيلة الذين عانوا من عنف المستغلين خلال آلاف السنين كان بودهم ان يتخلوا عن أي شكل من اشكال الاكراه. الا ان الطبقات المستغلة المحطمة هي التي تدفعهم الى ذلك. والطبقة العاملة التي تمارس

الديكتاتورية مستعدة لأن تتيح لافراد منتمين للطبقة المسيطرة السابقة فرصة العمل بنزاهة، والاندماج تدريجيا مع الشغيلة. ففي الوقت نفسه تحبط بثبات وحزم جميع محاولاتها الرامية الى اعاقة بناء الحياة الجديدة.

وتعني ديكتاتورية البروليتاريا سيطرة الغالبية الساحقة من المجتمع على اقلية ضئيلة، بينما كانت ديكتاتورية جميع الطبقات المستغلة (مالكي الرقيق، الاقطاعيين، الرأسماليين) تعني دائما سيطرة الاقلية على غالبية الشعب. وتعبر ديكتاتورية البروليتاريا وتدافع عن مصالح غالبية الشعب الساحقة، وتخدم القضية العادلة العظيمة، قضية القضاء على استغلال الانسان للانسان، وبناء الاشتراكية بينما خدمت الدول السابقة المصلحة المغرضة لحفنة قليلة من المستغلين. ولهذا فان ديكتاتورية البروليتاريا هي أكثر السلطات ديموقراطية من بين جميع السلطات التي عرفت سابقا.

وتقوم ديكتاتورية البروليتاريا بدور هائل خلاق في بناء المجتمع الاشتراكي الجديد.

ولبناء الاشتراكية يجب أن لا يقتصر على جعل الصناعة الكبيرة اجتماعية، بل يجب ايضا تحويل

الانتاج الصغير، وبالدرجة الاولى اقتصاد الفلاحين الى طريق الاشتراكية. يجب ضمان التطور السريع للقوى المنتجة، ليتعزز القدرة الاقتصادية والدفاعية للبلاد، ورفع المستوى الحياتي للشغيلة باطراد. يجب جعل العلاقات بين الناس، ومستواهم الثقافي، ووعيهم مطابقة الافكار الاشتراكية.

والطبقة العاملة تحقق كل هذه المهمات، معتمدة على ديكتاتوريتها. وتوجه البروليتاريا كل قضايـا التحويل الاشتراكي للمجتمع جاذبة الى بناء الاشتراكية جميع الشغيلة، وجميع حلفائها متزعمة اياهم، موجهة جهودهم نحو هدف موحد.

ومن الممكن ان تكون هناك اشكال مختلفة سواء للنضـال من اجل اقامة ديكتاتورية البروليتاريـا او للتنظيم السياسي للمجتمع في الفترة الانتقالية تبعا للظروف الملموسة لهذا القطر او ذاك.

كتب لينين في عام ١٩١٩: «كل الامم تصل الى الاشتراكية، فهذا شيء محتوم، ولكنها جميعا لا تصل على نحو متشابه تماما، كل امة تدخل طابعها الخاص في هذا الشكل او ذاك من اشكال الديموقراطية، وهذا الاختلاف او ذاك في ديكتاتورية البروليتاريا،

وهذه الوتيرة او تلك من التحولات الاشتراكية لمختلف جوانب الحياة الاجتماعية» *.

ومع ذلك فمهما يكن الشكل الذي يتم فيه الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية فانه ممكن فقط عن طريق الثورة. ومهما اختلفت الاشكال لسلطة الدولة الجديدة في فترة بناء الاشتراكية، فان جوهرها دائما واحد - ديكتاتورية البروليتاريا.

ويقود الحزب الثوري ويستطيع وحده أن يقود جميع نضال الطبقة العاملة على صعيد الفوز بديكتاتورية البروليتاريا، وبعد الثورة الاشتراكية على صعيد بناء الاشتراكية. والحزب هو القوة المخرسنة الموجهة لديكتاتورية البروليتاريا. انه يوجه نشاط جميع المنظمات الاخرى للشغيلة (منظمات الدولة، والمنظمات النقابية، ومنظمات الشبيبة وغيرها).

وديكتاتورية البروليتاريا شرط لازم، واداة ضرورية لبناء الاشتراكية. وديكتاتورية البروليتاريا ضرورية في كل الفترة الانتقالية من الرأسمالية الى الاشتراكية. ولكنها ليست ابدية، كما ليس ابديا انقسام المجتمع الى طبقات متعادية.

---

* لينين. المؤلفات، المجلد ٢٣، ص ٥٨.

وبعد ان تبنى الاشتراكية وتتعزز، أي بعد القضاء على الملكية الخاصة لوسائل الانتاج - اساس كل استغلال، وبعد القضاء على الطبقات المستغلة، وبعد أن تتطور القوى المنتجة تطورا جبارا، وتترسخ العلاقات الانتاجية الاشتراكية بثبات، وتخلق وتقوى وحدة الشعب الاجتماعية السياسية تكف ديكتاتورية البروليتاريا عن أن تكون ضرورية. وفي الاتحاد السوفييتي حيث انتصرت الاشتراكية بصورة تامة ونهائية، ودخل المجتمع في فترة بناء الشيوعية على نطاق واسع، أتمت ديكتاتورية البروليتاريا رسالتها التاريخية العظيمة، وكفت عن أن تكون ضرورية من وجهة نظر مهمات التطور الداخلي. وتحولت دولة ديكتاتورية البروليتاريا في الاتحاد السوفييتي الى دولة اشتراكية للشعب بأسره.

القوانين العامة
للثورة الاشتراكية وبناء الاشتراكية

أثبتت تجربة الاقطار الاشتراكية ان عمليات الثورة الاشتراكية وبناء الاشتراكية تقوم على عدد من القوانين الرئيسية العامة لجميع الاقطار.

فما هي هذه القوانين؟

قيادة الطبقة العاملة التي يكون الحزب المسلح بنظرية الاشتراكية العلمية بمثابة القلب منها، لجماهير الشغيلة في القيام بالثورة البروليتارية بهذا الشكل او ذاك، واقامة ديكتاتورية البروليتاريا بهذا الشكل او ذاك. وقد بحثنا آنفا معنى واهمية هذا القانون.

تحالف الطبقة العاملة مع الجمهـور الاساسي للفلاحين، ومع الفئات الاخرى من الشغيلة. ان الطبقة العاملة تعبر بشكل ثابت عن مصالح جميع الشغيلة، وهي لا تناضل منفردة بل بالتحالف معهم، وبفضل ذلك تنال انتصاراتها. واهمية هذا التحالف تنمو أكثر في فترة بناء الاشتراكية حين توضع أسس المجتمع المقبل اللاطبقي.

القضاء على الملكية الراسمالية، واقامة الملكية الاجتماعيــة لوسائل الانتاج الاساسيــة. ان الملكية الرأسمالية الخاصة هي الاساس الاقتصادي لاستغلال الشغيلة، واساس التناحر الطبقي، والسيادة والخضوع في المجتمع. وبغير القضاء على سيطرة الملكية الرأسمالية لا يمكن ان يدور كلام حول أية اشتراكية.

التحويل الاشتراكي التدريجي للزراعة. لا تستطيع

استثمارات الفلاحين الصغيرة أن تتخلص من الفاقة، ولا تستطيع أن تحقق لنفسها انتاجا آليا متقدما ذا انتاجية عمل عالية. والانتاج الصغير بطبيعته نفسها قادر في كل يوم، وفي كل شهر على أن يولد مستغلين جددا يستفيدون من مصاعب وفقر الغالبية الساحقة من الفلاحين، ويثرون على حسابهم، ويتحولون الى رأسماليين.

في فترة الانتقال الى الاشتراكية تتحول استثمارات الفلاحين الفردية بالتدريج واختياريا الى استثمارات تعاونية اشتراكية كبيرة. وبهذه الطريقة ينضم الفلاحون الى البناء الاشتراكي، ويرتفع مستواهم المادي والثقافي، ويترسخ تحالف الطبقة العاملة مع الفلاحين. وتبزغ في الانتاج الزراعي امكانيات غير محدودة لاستخدام أحدث التكنيك، والعلم الهندسي الزراعي المتقدم، وفي نفس الوقت يزول كليا اي استثمار للانسان من قبل انسان.

التطور المنهاجي للاقتصاد الوطني الموجه الى بناء المجتمع الجديد، الى رفع المستوى الحياتي للسكان.

ان الاشتراكية تضع حدا لفوضى الانتاج السائدة في عهد الرأسمالية. والصفة المميزة للاشتراكية، واعظم امتياز لها على جميع اشكال المجتمع السابقة هو تطور

الاقتصاد الوطني وفق خطة موحدة ممركزة. وبفضل ذلك تضمن الاشتراكية تطورا سريعا للانتاج، وتعطي للشعب خيرات مادية اكثر فاكثر، وتقدم له امكانيات غير محدودة للنمو الثقافي.

تحقيق الثورة الاشتراكية في حقل الايديولوجية والثقافة، وخلق مثقفين كثيرى العدد مخلصين للطبقة العاملـة، وللشعب العامل، وللقضية الاشتراكيـة. من الضروري لادارة الدولة والبنـاء الاقتصادي، وتطوير التكنيك، ورفع انتاجية العمل بشكل مطرد، التوصل الى شيوع التعليم العام، وخلق ملاكات علمية تكنيكية عديدة، وفئة المثقفين الشعبيين.

في عهد الرأسمالية يتمتع بعض الناس بكل نعم التكنيك والثقافة، ويحرم الآخرون من اكثر الاشياء ضرورية ـ من التعليم والتطور الثقافي؛ ان عقل الانسان وعبقريته قد وضعتا لخدمة العنف والاستغلال. والمهمة الرئيسية للثورة الثقافية تتمثل في جعل الثقافة شعبية حقا. ويقتضي هذا، اولا، القضاء على الهوة التي تفصل الشعب في المجتمع الاستغلالي عن الثقافة، وتحويل جميع الثروات الروحية، ومكتسبات العلم والفن الى ملكية للشعب كله. ثانيا، رفع المستوى التعليمي

والثقافي لجميع جماهير الشغيلة بشدة، وفتح المجال الواسع امام مواهب الشعب، وللتطور التام لقوى الشعب الخلاقة. وفي مجرى بناء الاشتراكية تتسع وتتثبت في وعي الجماهير ايديولوجية الاشتراكية العلمية، ويتربى انسان جديد.

في الاتحاد السوفييتي والاقطار الاشتراكية الاخرى ارتفع مستوى ثقافة الجماهير الشعبية في فترة قصيرة من الزمن، واعدت فصيلة جبارة من المثقفين. ومنذ زمن بعيد خلّف الاتحاد السوفييتي وراءه جميع الاقطار الرأسمالية من حيث الثقافة، وعدد الاخصائيين الحاصلين على تعليم عال وثانوي. وترتفع المعارف الثقافية والتكنيكية للعمال والفلاحين دون انقطاع. وقبل زمن وجيز قضي في كوبا، القطر الذي سار من توه في طريق الاشتراكية، على الامية بين الشغيلة المدينة والريف خلال عامين تقريبا.

ازالة الظلم القومي، واقامة المساواة في الحقوق، والصداقة الاخوية بين الشعوب. ان الاشتراكية تضع حدا للخصام القومي، واضطهاد الامم الصغيرة والمتأخرة في تطورها الاقتصادي. ومبدأ الاشتراكية هو المساواة في الحقوق، والصداقة الاخوية بين الشعوب. وتدعم

الاشتراكية العلمية وتدافع عن حق الامم في تقرير المصير، حق كل شعب بأن يقرر مصيره، والديموقراطية الدائبة في القضية القومية. وهي تربط حل القضية القومية بالنضال الطبقي للبروليتاريا، بتطور الديموقراطية، بانتصار الاشتراكية. ووضع في اساس السياسة القومية للاتحاد السوفييتي والاقطار الاشتراكية الاخرى ليس فقط تأمين المساواة الشكلية التشريعية لجميع القوميات بل وتحقيق مساواتها الفعلية الاقتصادية والثقافية. ان أسرع نهوض تصنيعي في فترة الانتقال الى الاشتراكية في الاتحاد السوفييتي يتم بالذات في الامم التي كانت أكثر نصيبا من الاضطهاد والتأخر في عهد الرأسمالية. وهكذا اذا كانت انتاج الصناعة الكبيرة في الاتحاد السوفييتي ككل قد نما من عام ١٩١٣ الى ١٩٤٠ حوالى ١٢ مرة، فقد نما أسرع بكثير في أكثر الجمهوريات السوفييتية تأخرا، فزاد خلال المدة نفسها في كازاخستان ١٩,٥ مرة، وفي ارمينيا ٢٢,٦ مرة وفي قرغيزيا ١٥٣ مرة وفي طاجيكستان حتى ٣٢٤ مرة. وبفضل المساعدة الاخوية المتبادلة لجميع القوميات الاشتراكية تغلبت جميع شعوب الاتحاد السوفييتي بنجاح على تأخرها

السابق. وخلقت في كل جمهورية من الجمهوريات السوفييتية القومية، وكل مقاطعة قومية صناعة عالية التطور تحتل مكانة بارزة في الاقتصاد الوطني، وزراعة عالية في محصوليتها.

وازدهر لا اقتصاد الجمهوريات القومية وحده، بل وثقافتها ايضا. ويجري التعليم في جميع هذه الجمهوريات باللغة القومية. بينما لم يكن لكثير منها في عهد الرأسمالية أية أبجدية. والآن توجد لها أبجدياتها ونحوها وجميع الكتب المدرسية مكتوبة باللغة القومية، وتم اعداد كوادر المعلمين الوطنية. وقبل الثورة لم يكن في بيلوروسيا واذربيجان وارمينيا وطاجيكستان وكازاخستان، وتركمانيا وقرغيزيا أية مؤسسات تدريسية عالية واليوم هناك عشرات من مختلف المؤسسات التعليمية العالية التي تعد المهندسين والمهندسين الزراعيين والاطباء والمدرسين والاخصائيين الآخرين. وقد أسست الى جانب اكاديمية العلوم في الاتحاد السوفييتي، وتعمل الآن اكاديميات علوم في جميع الجمهوريات الاتحادية.

ولم يكن لكثير من شعوب الاتحاد السوفييتي في عهد النظام القيصري آدابها ومسارحها. والآن بوسع

هذه الشعوب نفسها أن تفخر بمنجزاتهـا في تطور الادب، والثقافة والموسيقى والرسم، والمعمار، والفن المسرحي. وينشر في لغـات جميع شعوب الاتحـاد السوفييتي عدد كبير من الكتب والجرائد والمجلات.

ان قوميات وشعوب الاتحـاد السوفييتي التي ترصها الصداقة الاخوية تساهم بنشاط في بناء الحياة الجديدة.

الدفاع عن مكتسبـات الاشتراكية من تطاولات الاعداء الداخليين والخارجيين. ان الطبقات المستغلة المطوح بها لن تتخلى عن السلطة عن طيب خاطر. وهي بتأييد الاوساط الرجعية العالمية تقوم بجهود مسعورة لاعادة سيطرتها. وفي روسيا شن اصحاب الاطيان والبرجوازية حربا اهلية ضد العمال والفلاحين المنتصرين، ودعـوا لمساعدتهم المتدخلين الاجـانب. والدول الاشتراكية تعزز قواها لتدافع بشكل موثوق به عن مكاسب الشغيلة.

تضامن الطبقة العاملة في قطر معين مع الطبقة العاملة في الاقطـار الاخرى، ومع شغيلة العـالم كله. ان الاشتراكية تتسم، بدلا من الخصام والعداء بين

شعوب مختلف الاقطار، وهما صفتان مميزتان للنظام الاستغلالي، بالصداقة الاخوية وتعاون جميع الشعوب، وتعزز وحدة شغيلة جميع الاقطار.

الاشتراكية العلمية
حول قوانين الاستعاضة
عن العلاقات الانتاجية
لما قبل الراسمالية
بالعلاقات الاشتراكية

من أهم قضايا الانسانية هي قضية آفاق تطور الاقطار التي حصلت على استقلالها الوطني او التي تناضل من أجله. لقد حكمت الدول الامبريالية على هذه الاقطار بالتخلف الابدي بعد أن استعبدتها، وكما لو أنها قد أقصتها عن التقدم التاريخي العام. وفي نفس الوقت، كما هو الحال في اقطار اوروبا واميركا نضجت الرأسمالية وشاخت، وفي جزء من العالم يجري الانتقال الى المجتمع الجديد ـ الاشتراكية والشيوعية، بينما في معظم اقطار آسيا وافريقيا وبعض اقطار

اميركا اللاتينية ما زالت العلاقات الاقطاعية وما قبل الاقطاعية باقية. ان التخلف الاقتصادي والفقر والامية هي تركة ثقيلة للحكم الاستعماري.

لقد تعرضت افريقيا خلال قرون عديدة الى أقسى وأذل اضطهاد من جانب الدول البرجوازية في اوروبا الغربية. واعلن الرأسماليون محاولين تبرير وحشيتهم حيال الافريقيين، والاذلال الفظ لكرامتهم الانسانية أن الافريقيين اناس غير قادرين على الابداع المستقل. الا أن شعوب افريقيا اليوم تتحرر، وتوجه الضربات الحاسمة للنظام القديم للاستغلال الاستعماري. وقد برهنت على قابليتها على التقدم التاريخي، وتحويل المجتمع، واقامة الديموقراطية، وعلى العمل المنتج، والابداع العلمي والتكنيكي والادبي – قابلية لا تقل البتة عن قابلية الناس في القارات الاخرى. ولا تريد شعوب افريقيا أن تسير في الطريق القديم المهلك الذي ادانه التاريخ، طريق معارضة عنصر بعنصر، وشعوب بشعوب. فان هذا الطريق يؤدي حتما الى العداء بين الاقوام والشعوب الى الصراع بينها، الصراع الذي لا يربح منه الا حفنة قليلة من المستغلين، ولكن جماهير الشعب تلاقي

الحرمانات والعذابات. ويريد شعب افريقيا العامل أن يعيش في صداقة وتعاون مع شغيلة جميع القارات.

ان افريقيا تبحث عن اقصر طريق للتغلب على التخلف الاقتصادي والثقافي. ويميل الى الاشتراكية عدد متزايد من رجال الدولة والسياسة في القارة الافريقية، وعدد متعاظم من الشغيلة الافريقيين، واجدين فيها بالضبط أقصر طريق نحو التحويل الجذري للمجتمع.

فهل من الممكن تفادي الرأسمالية، والانتقال الى الاشتراكية في الاقطار التي تسود فيها العلاقات الانتاجية لما قبل الرأسمالية، والتي لا توجد فيها او تكاد لا توجد صناعة كبيرة وطبقة عاملة - صاحبة رسالة التحرر التاريخية العالمية، والتي يتألف جميع سكانها تقريبا من الفلاحين المستقلين الصغار أو الفلاحين اعضاء المشاعات العائلية؟

تجيب الاشتراكية العلمية عن هذا السؤال بالايجاب؛ نعم، ان مثل هذا الانتقال الى الاشتراكية متخطيا الرأسمالية قد اصبح ممكنا الآن لأي قطر ولو كان الاكثر تخلفا. لقد كانت الرأسمالية مرحلة ضرورية ومحتومة في تطور المجتمع الانساني، ولكن لكي تنتصر الاشتراكية على الكرة الارضية كلها ليس

من اللازم أن تكون العلاقات الاجتماعية البرجوازية قد تطورت كليا في جميع الاقطار. كتب لينين: «بما ان الصناعة الكبيرة على النطاق العالمي موجودة ففي الامكان دون شك الانتقال المباشر الى الاشتراكية» *. وتستطيع الاقطار المتخلفة أن تنتقل الى الاشتراكية متخطية المرحلة الرأسمالية، بمساندة الطبقة العاملة المنتصرة في الاقطار الاخرى، وبمساندة الدول الاشتراكية.

ويقدم شغيلة مختلف الاقطار بعضهم لبعض المساعدة المتبادلة عند الانتقال الى الاشتراكية، ويرفضون بحزم العلاقات الاستغلالية، علاقات السيطرة والخضوع بين الشعوب. وسيتثبت النظام الاجتماعي الاشتراكي ان عاجلا او آجلا في جميع اقطار العالم، وبهذا الشكل ستخلق المجتمع الجديد تلك الشعوب التي حكم عليها الامبريالية بالتخلف.

ان السير في طريق الرأسمالية في وقتنا الحاضر حين قضي على الرأسمالية في جزء من العالم، وحكم عليها بالزوال ككل، انما يعني تضييق آفاق التطور، والنظر الى الخلف لا الى الامام. والحياة تتطلب الحل

* لينين. المؤلفات، المجلد ٣٣، ص ١٢٤.

الفعلي للمشاكل الاجتماعية لمصلحة الجماهير الشعبية. ولكن هل من المعقول أن يوصف بهذا الحل تطور التفاوت الاجتماعي، وتشديد استغلال اغلبية المجتمع من قبل اقليته، والامتناع عن اسرع تطور للاقتصاد الوطني، ورفع رفاهية الشعب؟ في عصرنا الحاضر من المستحيل التقدم الى الامام دون السير نحو الاشتراكية.

ان التطور السريع في طريق التقدم الاجتماعي في الاقطار التي كسبت استقلالها الوطني منذ عهد قريب، يمكن أن يضمن بطرق تطور دولة الديموقراطية الوطنية - الدولة التي تعبر عن مصالح مجموعة فئات الشعب الواسعة، وتصون بثبات استقلالها السياسي والاقتصادي، وتناضل ضد الاستعمار، ومحالفاته العسكرية، ضد الاشكال الجديدة للحكم الاستعماري وتغلغل الرأسمال الامبريالي. وترفض دولة الديموقراطية الوطنية اساليب الحكم الديكتاتورية والاستبدادية، وتضمن للشعب الحقوق والحريات الديموقراطية الواسعة، وامكانية الظفر بالتحولات الديموقراطية والاجتماعية، والاشتراك في رسم سياسة الدولة.

وشروط الانتقال من العلاقات ما قبل الرأسمالية

الى الاشتراكية مختلفة باختلاف الاقطار. وهي مرتبطة قبل كل شيء بمستوى التطور الاجتماعي الموجود في هذه الاقطار.

وفي كثير من اقطار افريقيا ما زالت تعيش اشكال الملكية المشاعية او مخلفات تلك الاشكال التي بقيت من عهد ما قبل الغزو الاستعماري، ما قبل ظهور الانتاج البضاعي، مـــا قبل اقامة الاستغلال الامبريـالي. ولهذه الاشكال صفـة مشتركـة مع الاشتراكية، وهي أن وسائل الانتاج ملكية اجتماعية وليست ملكية خاصة. ومع ذلك فعلى هذا الحد تقتصر الصفة التي تجمعها بالاشتراكية، وكما كتب فريدريك انجلس ان هذه الصفة وحدها لا تعطي لهذا الشكل القديم من الانتاج القابلية على أن يولد من نفسه المجتمع الاشتراكي المقبل.

وتملك المشاعة العائلية وسائل انتاج غير متطورة وبدائية فقط. ولا يتحقق فيها بجهد كبير الا تجديد الانتاج البسيط اي الانتاج الذي يظل حجمه غير متغير، وانتاجية العمل فيه منخفضة جدا، والنشاط الاقتصادي وجميع حياة المجتمع محافظة جدا. والمشاعة العائلية نفسها تضم عددا قليلا من الناس، وهم جماعة محلية

من الناس مغلقة على نفسها، لا تربطها مصالح انتاجية او غيرها من المصالح الاقتصادية مع الجماعات الشبيهة بها. وكل هذا يفصل النظام المشاعي القديم عن المجتمع الاشتراكي الذي يفترض مستوى عاليا من تطور القوى المنتجة، ووتيرات سريعة للنمو الاقتصادي، ومقدارا هائلا من الخيرات المادية المنتجة، ونهوضا مطردا في مستوى الشعب الحياتي، وتطورا عاصفا في التعليم والعلم والثقافة، وعلاقة متبادلة لا تنفصم بين المجموعات الانتاجية على اساس الملكية الاشتراكية العامة.

والاشكال الشعبية الافريقية للملكية الاجتماعية هي، من حيث طبيعتها الاجتماعية الاقتصادية، من طراز تلك الظواهر في القارات الأخرى كالمشاعة الفلاحية القديمة في اوروبا الشرقية، او مشاعات الهنود الحمر في اميركا اللاتينية. ومثل هذه الاشكال المتميزة بالملكية الاجتماعية لوسائل الانتاج كانت لدى جميع الشعوب في العصر الذي لم يكن فيه بعد انقسام طبقي. والتاريخ الى حتى الآن لم يقدم أمثلة عن مقدرة هذه الاشكال المتبقية من عهد النظام العشائري على توليد شكل عال للمجتمع التعاوني - المجتمع الاشتراكي. وفضلا عن ذلك انها لم تستطع قط أن تصمد أمام التأثير

الضار للانتاج البضاعي، والسوق العالمية. وقد كتب انجلس: «...لم تولد الشيوعية الزراعية المتبقية من النظام العشائري في اي مكان، وفي أي وقت شيئا من نفسها ذاتها غير التعفن الذاتي» *. وفي كثير من اقطار افريقيا وضع المستعمرون في خدمتهم البناء المشاعي الذي كان موجودا عند القبائل المستعبدة. وقد حوّلوا افراد المشاعة الاحرار الى عبيد في المزارع. وفي كثير من المشاعات تكونت فئة من اصحاب للملكية الخاصة استولوا على الاملاك الاجتماعية، واستغلوا افراد قبيلتهم.

ولكن كل هذا لا يعني ان الاشكال الشعبية القديمة للملكية الجماعية والعمل لا تستطيع ان تلعب أي دور في بناء المجتمع الجديد في افريقيا. ففي هذه القارة توجد أمثلة على سلوك السلطة الشعبية طريق التحويل الجذري لاقتصاد البلاد ونظام الحياة كله، واقامة اشراف على وسائل الانتاج الاساسية، وتعزيز الاساس التخطيطي، وتركيز جميع التكدسات الاساسية عن طريق ميزانية الدولة. ومثل هذه السلطة الشعبية

---

* ماركس وانجلس. المؤلفات، المجلد ٢٢، ص ٤٤٤.

بوسعها أن تبعث حياة جديدة في المشاعة الفلاحية، وتساعد المزارعين على تحويلها الى تعاونية عاملة. وتشهد تجربة مالي وغانا وبعض الاقطار الافريقية الاخرى على ان القوى المناهضة للامبريالية تستطيع أن توقظ مبادرة فائقة لدى جماهير الشغيلة، وتطلق عاملا انتاجيا غير معروف في أزمنة الحكم الاستعماري وهو التحمس الشعبي.

وقد تنبأ فريدريك انجلس بمثل هذه الامكانية حين كتب في عام ١٨٩٤: «... ان الاقطار التي نجحت من توها في السير في طريق الانتاج الرأسمالي، والتي بقيت فيها ايضا انظمة عشائرية سالمة، او بقايا منها تستطيع أن تستفيد من هذه البقايا من الملكية المشاعية، والعادات الشعبية المطابقة لها كوسيلة جبارة لتقصير عملية تطورها الى المجتمع الاشتراكي بشكل كبير، وتفادي جانب كبير من ذلك العذاب وذلك النضال اللذين يجب شق طريقنا عبرهما في اوروبا الغربية» *. ولكن انجلس في الوقت ذاته شدد على الاهمية الهائلة لمثال الاقطار التي انتصر فيها الاسلوب

* ماركس وانجلس. المؤلفات المجلد ٢٢، ص ص ٤٤٥–٤٤٦.

الاشتراكي في الانتاج، وتأييدها النشيط. فان هذا المثال، وهذا التأييد النشيط، كما قال هو، هما هنا «شرطان محتومان»، وتستطيع الاقطار الاخرى السير في طريق تقصير عملية التطور فقط حين ترى «كيف يحدث هذا».

وتظهر التجربة التاريخية للانسانية كلها أن في ظروف الفعل العفوي للقوانين الاقتصادية يستغرق الانتقال من تشكيلة اقتصادية الى أخرى أكثر تقدما، وقتا طويلا. فمثل هذا الانتقال استغرق مئات بل وآلاف السنين. وفي الاقتصاد الاشتراكي المنهاجي ظهرت لاول مرة ظروف للنشاط الواعي لافراد المجتمع لغرض تعجيل التطور التاريخي. ولهذا السبب يتطور الاسلوب الاشتراكي للانتاج بمثل هذه الوتيرات التي لا مثيل لها في السرعة بالقياس الى الاسلوب الرأسمالي. ان القوانين الاقتصادية للاشتراكية هي قاطرات جبارة تدفع المجتمع الى الامام بسرعة تتعاظم كلما قلّت العقبات في طريقها.

ان اقطارا مثل روسيا وبولنده وبعض الاقطار الاخرى لم تكن قد وصلت حتى فوز البروليتاريا بالسلطة الى المستوى العالمي المتوسط في انتاج المنتجات

بالنسبة للفرد الواحد من السكان. وفي فترة تاريخية قصيرة بعد الثورة الاشتراكية استطاعت ليس فقط الوصول الى ذلك المستوى بل وتخطّته بدرجة كبيرة. والآن تسابق في مستوى الانتاج، وانتاجية العمل اكثر الاقطار البرجوازية تطورا، تلك الاقطار التي قد تطورت فيها الرأسمالية في اكثر الظروف ملاءمة. وحصلت على أعلى المنجزات. وقد تخطى الاتحاد السوفييتي، وعدد من الاقطار الاشتراكية الاخرى العالم الرأسمالي في تطور التعليم والعلم والثقافة كلها، وفي ذلك ايضا أول ضمان لانتصار الاشتراكية على الرأسمالية في جميع مجالات النشاط الانساني.

ان اشتراكية قد اثبتت للانسانية مزاياها كمعجل عظيم للتطور الاجتماعي.

المجتمع الاشتراكي

طورا المجتمع الشيوعي

حدد ماركس وانجلس عن طريق التحليل العلمي للرأسمالية، وتناقضاتها واتجاهاتها المبادئ العامة، وصفات المجتمع الجديد الذي سيحل محل النظام

الرأسمالي الاستغلالي نتيجة لثورة البروليتاريا المظفرة. وتعني اقامة هذا المجتمع الجديد ازالة الملكية الرأسمالية الخاصة، وتحويل وسائل الانتاج الى ملكية اجتماعية، والقضاء على الطبقات المستغلة، والطبقات عموما، واستغلال الانسان للانسان، وكذلك استغلال أمة لأمة. وقد سميا هذا المجتمع بالمجتمع الشيوعي.

كما توصل ماركس وانجلس الى استنتاج هو أن المجتمع الشيوعي سيكون له طوران: طور الاشتراكية، وطور الشيوعية بالذات. وتقدم أعمال ماركس وانجلس ولينين مميزات كلا الطورين، وترسم المهمات التي يجب تنفيذها لتثبيت الاشتراكية وفتح الطريق الى الشيوعية.

وينبثق الطور الاول – الاشتراكية – في مجرى التحطيم الثوري للنظام القديم للحياة الاجتماعية، أي على غير قاعدتها الخاصة. وتخرج الاشتراكية من رحم المجتمع الرأسمالي، ولهذا فهي ما تزال تحتفظ – على حد تعبير ماركس – بعقابيل الولادة للمجتمع القديم في النواحي الاقتصادية والخلقية والعقلية.

وطور الثاني – الشيوعية – هو شكل أعلى للمجتمع، وهو ينمو من الاشتراكية المترسخة بوصفها اساساً له هو بالذات.

ولهذين الطورين للمجتمع الانساني الجديد شيء مشترك في الأهم والأكثر مبدئية: وسائل الانتاج ملك للمجتمع، واستغلال الانسان للانسان قد أزيل. والفرق بين الطورين هو في مستوى تطور القوى المنتجة، ودرجة نضوج المجتمع في النواحي الاقتصادية والثقافية والاخلاقية. ان الانتاج الاجتماعي في عهد الاشتراكية لم يتطور بعد الى الحد الذي يمكن معه تطبيق مبدأ الشيوعية (**«من كل حسب كفاءاته، ولكل حسب حاجاته»**). ففي طور الاشتراكية يسري مبدأ **«من كل حسب كفاءاته، ولكل حسب عمله»**. وهذا يتطلبه ليس فقط المستوى الفعلي للانتاج: بل وتلك الدرجة التي لم تبلغ بعد من الوعي، حين يصبح العمل الحاجة الحياتية الاولى، والناس يعملون في المجتمع بارادتهم ووفق كفاءاتهم. والدولة ضرورية كليا في عهد الاشتراكية، أما في عهد الشيوعية فستضمحل: يتعلم الجميع ادارة الشؤون الاجتماعية وسيديرونها في الواقع.

اكتشف ماركس وانجلس القوانين الاساسية لاعظم تحول ثوري في تاريخ الانسانية - الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية، واشارا الى الصفات

الاساسية للمجتمع الجديد. الا أن ماركس وانجلس لم يعتبرا من الممكن، ولم ينشغلا قط بمواصفات المجتمع المقبل مقدما، واشكال تنظيمه، وتفاصيل حياته اليومية، كما فعل الاشتراكيون الطوباويون. وقد قال لينين في عام ١٩١٨: «ان التجربة الجماعية وحدها، تجربة ملايين الناس فقط، يمكن ان تقدم في هذا المجال تعليمات حاسمة، وذلك بالضبط لأنه لا تكفي لقضيتنا، قضية بناء الاشتراكية تجارب مئات وآلاف من تلك الفئات العليا التي كانت تصنع التاريخ حتى هذا الحين سواء في مجتمع اصحاب الاطيان او في المجتمع الرأسمالي» *.

واليوم حصلت الانسانية على مجتمع اشتراكي قائم فعليا في الاتحاد السوفييتي والاقطار الاشتراكية الاخرى، وعلى علم لبناء الاشتراكية امتحنته التجربة. إن تجربة بناء المجتمع الجديد تصبح اغنى، واوسع جوانب، وتبرهن هذه التجربة بوضوح متزايد على أن القوانين الرئيسية لتطور الانسانية هي قوانين عامة رغم الظروف الخاصة واختلاف اشكال الانتقال الى الاشتراكية.

---

* لينين. المؤلفات، المجلد ٢٧، ص ٣٧٤.

الملكية الاشتراكية الاجتماعية

تقضي الاشتراكية الى الابد على التناقض بين الملكية والعمل. ان المشتركين في الانتاج انفسهم وهم الشغيلة يملكون جماعيا وسائل العمل التي يستخدمونها. وبنتيجة السيطرة المطلقة للملكية الاشتراكية تبعد كليا امكانية تحويل وسائل الانتاج الى وسيلة لاستغلال جزء من المجتمع جزءا آخر. ولهذا تبنى العلاقات الانتاجية بين الناس كعلاقات تعاون رفاقي وعون متبادل.

وتوجد الملكية الاشتراكية في عهد الاشتراكية على شكلين: **لعموم الشعب** (تابع للدولة) **والتعاوني** (في الاتحاد السوفييتي – التعاوني-الكولخوزي).

وتحتل ملكية الشعب بأسره (التابعة للدولة) مكانا رئيسيا في الاقتصاد الاشتراكي. وفي الاتحاد السوفييتي تنسب اليها الارض وما في بطونها، والمياه والغابات، والمشاريع الصناعية، ووسائل النقل المائي والجوي والسكك الحديدية، والبنوك ووسائل المواصلات (البريد، والتلغراف، والتلفون، والراديو) والسوفخوزات، واغلبية المساكن في المدن والمراكز الصناعية.

وشكلا الملكية الاشتراكية يطابقان نوعي الاستثمارات الاشتراكية: ١) المشاريع التابعة للدولة – المعامل والمصانع والمشاريع الزراعية التابعة للدولة (السوفخوزات، ومحطات تصليح الآليات)، ومشاريع الخدمات العامة، الخ.؛ ٢) التعاونيات (الاستثمارات الفلاحية الجماعية، مشاريع التعاونية الاستهلاكية).

ويعني الدور القيادي والموجه لملكية الدولة أن جميع افراد المجتمع المتاحة لهم ظروف اقتصادية متساوية لهم علاقة متساوية بوسائل الانتاج الاساسية التابعة للشعب كله. ان العمال والمستخدمين في المشاريع التابعة للدولة، والفلاحين التعاونيين في التعاونيات على الاسس المتساوية يشتركون في العمل، وفي ادارة الانتاج، ويحصلون على الخيرات الثقافية والمادية وفق كمية ونوعية عملهم.

الهدف الاساسي

للانتاج الاشتراكي

ان وسائل الانتاج في عهد الاشتراكية تابعة للشغيلة انفسهم، ولهذا فان المنتوج الاجتماعي يعود

للمجتمع، أي للشغيلـــة بوصفهم جماعة موحدة. وثمار العمل تقع من نصيب الشغيلة انفسهم ولهذا فان مواطني القطر الاشتراكي لهم مصلحة في الزيادة المطردة لانتاج الخيرات المادية.

ومن جوهر الانتاج الاشتراكي هذا ينبثق هدفه. يتوسع الانتاج الاجتماعي باطراد ويتحسن على قاعدة من التكنيك الحديث والعمل الجماعي **لغرض** أتم تلبية للحاجات المتنامية باستمرار وللتطوير الشامل **لجميع** افراد المجتمع.

الاشتراكية
مجتمع عالي التنظيم

ان جميع الاشتراكيين الطوباويين تقريبا، وكذلك خصمي الاشتراكية العلميـــة بـــرودون وباكونين الذين وقفوا ضد نظرية ماركس وانجلس في القرن التاسع عشر ظنوا أن المجتمع في عهد الاشتراكية والشيوعية يجب أن يتفكك الى مجموعات صغيرة (كومونات، اتحادات) لا ترتبط او قليلة الارتباط بعضها ببعض. وستكون هذه المجموعات او الكومونات

متمتعة بحكم ذاتي تام في النشاط الاقتصادي، وباستقلال في القضايا الاجتماعية. وتستطيع، حين تشاء، أن تتبادل فيما بينها بالفائض من منتجاتها، وبالخدمات المتبادلة. ومع ذلك فان هذه الكومونات لا تؤلف مجتمعا موحدا، بل مجرد أنها تعيش جنبا الى جنب.

رفض ماركس وانجلس هذا «المثال» للمجتمع المتفكك المتشتت، واللامركزي كليا، وغير المنظم في واقع الامر. وقد اثبتت الاشتراكية العلمية أن مثل هذه اللامركزية تناقض قوانين تطور القوى المنتجة، وتقوض الانتاج، وتسد طريق استخدام منجزات العلم والتكنيك، وتحطم الصلة الانتاجية الاقتصادية النامية داخل الامة وبين الامم المنفردة. وينال المجتمع الاشتراكي افضلية هائلة على المجتمع الرأسمالي لأنه يوحد القوى المتفرقة في قوة جماعية للمجتمع كله. ان سيادة ملكية الشعب بأسره، أي خضوع الانتاج كله للدولة الاشتراكية تزيل نفس امكانية ظهور التزاحم السقيم بين المنتجين – الشغيلة، وتعزز تضامنهم، وعلاقات التعاون الرفاقي، والمعونة المتبادلة.

ان اللامركزية التي يقترحها الفوضويون اتباع برودون وباكونين تتجاهل تضامن الشغيلة، ولو تتحقق لوجدت كومونات الحكم الذاتي نفسهــا في ظروف طبيعية مختلفة، وفي ظروف غير متساوية في التكنيك وتنظيم العمل، ولتميزت المجموعات بعضها عن بعض بفعالية عملها، ولوجد بعضها حتما نفسه في وضع احسن من غيره، ولظهر ولقوى التفاوت في الملكية بينها، ونما وقسا نضال الادعاءات والنزعات المتبادلة، ولسيطرت المجموعات الاقوى اقتصاديا على الاضعف، وهكذا لتولدت على اساس جديد علاقات استغلالية برجوازية، ولظل الهدف العام للاشتراكية، وهو تحسين الانتاج المتواصل من أجل تلبية أتم لحاجات الشعب المتناميــة، غير محقق، وليس هذا فحسب، بل ولاستبدل بهدف الوصول الى امتيــــاز جماعة على حساب جماعــات اخرى. ان المثــال الفوضوي «للامركزية التامة» رجعي من الناحية الاقتصادية والاجتماعية معا.

ان الاشتراكية والشيوعية مجتمع عالي التنظيم. ويرص المجتمع الاشتراكي جميع افـراده موجهــا جهودهم الى هدف موحد، ويكوّن مجموعا عاملا موحدا.

وهو ينظم الانتاج الوطني، ويقيم كذلك تنسيقا للانتاج في المجال الدولي. فالاشتراكية انما هي اتحاد بين منتجين احرار متساوين في الحقوق يقومون بعمل اجتماعي وفق خطة عامة عقلانية. وفي عهدها يحل النشاط المنهاجي الواعي محل الفوضى الرأسمالي في الانتاج. والاقتصاد الاشتراكي انما هو اقتصاد مركزي منهاجي.

وتتحقق قيادة الاقتصاد والبناء الثقافي في عهد الاشتراكية على اساس مبادئ **المركزية الديموقراطية**. والمركزية الديموقراطية هي الجمع الوثيق بين المبدأين الاساسيين، وهما المركزية والديموقراطية، في ادارة المشاريع المختلفة، والفروع الاقتصادية، وكل الاقتصاد الوطني. ان تطور الانتاج الحديث الذي هو عضو موحد، وطابع ملكية الشعب بأسره لوسائل الانتاج، وضرورة ضمان تفوق مصالح عموم الشعب على المصالح المحلية، ومصالح جماعات بعينها ـ كل هذه العوامل وعوامل اخرى تقتضي التنظيم المركزي، وادارة رجل واحد، والتنفيذ الصارم لاوامر الهيئات المركزية، وممثليها في الاماكن. وفي نفس الوقت ستكون الاشتراكية من حيث جوهرها كاتحاد لمنتجين احرار متساوين مستحيلة

بغير المساهمة الفعالة للمنظمات الاجتماعية وجميع الشغيلة في ادارة الانتاج، وتخطيطه.

والملكيـة الاشتراكية تولد قوانين موضوعيـة للاقتصاد يحتل قانون التطور المنهاجي المنسق للاقتصاد الوطني مكانا خاصا بينها. وينطلق التخطيط الاشتراكي من اسس عملية، ويعتمد على الوعي المتنامي، ونشاط جماهير اوسع فاوسع من الشغيلـة. ويفتح نشـاط الجماهير الخلاق آفاقا جديدة وجديدة للانتاج.

العمل في عهد الاشتراكية

مبدأ المجتمع الاشتراكي والشيوعي هو واجب العمل لعموم الناس. وشعار الاشتراكية هو «من لا يعمل لا يأكل». والعمل الزام لكل من يقدر على العمل. والجميع يتحملون الزاما متساويا على العمل، ويتمتعون بحق متساو في أن يحصلوا على المكافآت لقاء عملهم. ويزول تقسيم المجتمع الى اقلية متحررة من العمل، ولكنها تتمتع بكل خيرات الحياة، وغالبية ساحقة محكوم عليها بالعمل المرهق دون أن يضمن حتى ما يديم

أودها. وهو التقسيم الذي تميزت به جميع المجتمعات الاستغلالية.

والعمل في عهد الرأسمالية قضية فردية. حين يخدم البروليتاري الرأسماليَ ويعمل له لا يهتم الا بان يحصل لنفسه على موارد للعيش. وأن يعمل او لا يعمل قضية تخصه كفرد، ولا تخص المجتمع. أما في عهد الاشتراكية فان عمل كل انسان منذ البداية يبرز كعمل اجتماعي، ولا يعتبر قضية فردية، بل اجتماعية. ويعتبر مواطن المجتمع الاشتراكي اشتراكه في العمل الاجتماعي النافع ليس كوسيلة لكسب الرزق فقط، بل وكتنفيذ لواجبه، ومساهمته في بناء المجتمع الجديد. وتظهر الى جانب المصلحة المادية دوافع معنوية الى العمل. وتنشأ المباراة الاشتراكية للشغيلة المرتبطة بشكل لا ينفصم بمساعدة المتقدمين الرفاقية للمتأخرين بغية الوصول الى نهوض عام. وبدلا من الضبط القديم القائم على القهر يتعزز ضبط جديد واع قائم على اساس أن كل شغيل يدرك واجبه ازاء المجتمع، وله مصلحة شخصية في العمل.

التوزيع
في عهد الاشتراكية

في المجتمع الاشتراكي ليس جميع العاملين قد بلغوا صعيدا واحدا من الكفاءة العالية. وهذا مرتبط بمستوى تطور الانتاج: فبعضهم يقوم بعمل معقد، مستخدما في ذلك جميع الآلات واللوازم الممكنة، وآخرون يقومون بعمل أقل تعقيدا. ويظل الفرق بين العمل العضلي والفكري قائما حتى ذلك الحين. والانسان لا يشتغل دائما، ولا يستطيع دائما ان يشتغل بالعمل الذي يلائمه بصورة تامة. وتقوده ايضا اعتبارات الكسب له ولعائلته. والعمل لم يصبح بعد الحاجة الحياتية الاولى لجميع اعضاء المجتمع، ولهذا لا يشتغل الجميع بدرجة واحدة من الحماس العالي، كما يوجد هناك اعضاء في المجتمع يحاولون ان يعيشوا على حساب الآخرين.

ولهذا من الضروري اقامة رقابة الشعب كله على مقياس العمل، ومقياس الاستهلاك. ومن الضروري حسبان الاختلاف في كفاءات العاملين، وفي مقدار تعقيد العمل. وتنظيم اجرة العاملين وفق كمية ونوعية العمل

المبذول. ومن يعمل اكثر واحسن يحصل على اكثر.
ومثل هذا النظام لأجر العمل يخلق مصلحة مادية في رفع الكفاءة، والمساهمة في الانتاج مساهمة نشيطة، وزيادة كمية المنتجات المصنوعة ورفع نوعيتها.

وفي عهد الاشتراكية يحصل كل منتج من المجتمع بقدر ما يقدم هو له ناقصا الحصة التي تذهب الى الصندوق الاجتماعي. وفي عهد الاشتراكية يكون التفاوت الطبقي قد زال، ولكن ما يزال هناك تفاوت في مقدار المنتجات التي تنال عند التوزيع. ومن السهل أن يلاحظ أن مبدأ الأجر المتساوى لقاء العمل المتساوى في عهد الاشتراكية انما هو تطبيق معيار واحد على مختلف الناس. ولما كان الناس يمتلكون كفاءات مختلفة، ومواهب متفاوتة، ولهم عوائل متفاوتة في عدد افرادها فانهم عند الدفع حسب العمل يحصلون على دخولات مختلفة فعليا. وهذا نقص الاشتراكية، ولكنه محتوم في المرحلة الاولى من المجتمع الجديد: فالمجتمع في هذه المرحلة لم يصل بعد الى الوفرة التامة في سلع الاستهلاك، ولم يبلغ كل افراده الوعي العالي بشكل كاف. ومن غير الممكن جعل اجور الشغيلة جميعهم متساوية، فان ذلك قد يخرق مبدأ

الأجر حسب العمل ووفق الكفاءة، ويضعف الحافز الى رفعه.

وفي عهد الاشتراكية تكسب صناديق الاستهلاك العامة المخصصة لتلبية الحاجات الشخصية للمواطنين أهمية متعاظمة باستمرار. ويصرف جزء من صناديق الاستهلاك الاجتماعية على التعليم المجاني والخدمة الطبية، وتمويل المدارس الداخلية، ورياض الاطفال ودور الحضانة والمصحات ودور الراحة والنوادي، ودور الشيخوخة، ومخيمات الطلائع، ومراكز السياحة والرحلات. ويقدم جزء آخر الى الشغيلة على شكل اعانات ومعاشات، ومخصصات للطلاب، واجور الاجازات. فمثلا، في الاتحاد السوفييتي في الوقت الحاضر يوجد ٢٠ مليون محال الى المعاش واكثر من ٥ ملايين من الطلاب تدفع لهم الدولة والكولخوزات. ويحصل اكثر من ١٠٠ مليون عامل ومستخدم كل عام على اجازة مدفوعة الاجر. وتحصل على اعانات الدولة ٦ ملايين ام من الامهات الكثيرات الاولاد، وام وحيدة. ويستريح اكثر من ٧ ملايين شغيل في الاتحاد السوفييتي واطفالهم سنويا، ويتعالجون في المصحات ودور

الراحة، ومخيمات الطلائع على حساب اموال الضمان الاجتماعي. ويتعلم الاطفال في المدارس مجانا.

ان الاجر الشخصي في الاقطار الاشتراكية ما يزال يزيد بكثير على الاجر المأخوذ من الصناديق العامة. الا أن صناديق التلبية المشتركة للحاجات تلعب في فجر الاشتراكية دورا هائلا في جميع حياة المجتمع: انها تضمن عمومية التعليم في جميع درجاته، والخدمة الطبية المجانية، والتوسيع العريض بوجه عام لنظام وقاية الصحة الشعبية الذي يفوق جميع ما هو معروف حتى في اكثر الاقطار الراسمالية تطورا؛ وهي تضع تحت تصرف جميع المواطنين عددا هائلا من المؤسسات الثقافية والتنويرية (مكتبات، ومتاحف، ونواد، ودور للثقافة، الخ.). وتساعد الصناديق العامة الشغيلة انفسهم على اعالة غير القادرين على العمل - الاطفال، والطلاب، والمرضى، والعاجزين، وتضمن معاشا كافيا للشيوخ.

وينمو باطراد الوزن النوعي لصناديق الاستهلاك العامة التي تتوزع، في حقيقة الامر، وفق المبدأ الشيوعي «من كل حسب كفاءاته، ولكل حسب حاجاته». وعلى حسابها يسد نصيب اكبر فاكبر من حاجات مواطني المجتمع الاشتراكي.

مجتمع الطبقتين
الكادحتين المتحابتين

في المجتمع الاشتراكي لا تبقى الا الطبقتان الكادحتان ـ طبقة العمال وطبقة الفلاحين، وكذلك فئة المثقفين الشعبيين الاجتماعية الوثيقة الارتباط بهما. والفرق بين هاتين الطبقتين المتحابتين يمحي اكثر فاكثر. فان وضعهما الاجتماعي قد تغير بصورة جذرية.

كانت الطبقة العاملة حتى الثورة الاشتراكية محرومة من وسائل الانتاج، ومتحملة الاستغلال الفظ. وهي مع الشعب كله في عهد الاشتراكية مالكة وسائل الانتاج، وتلعب دورا قياديا في المجتمع. ودورها هذا يحدده بالدرجة الاولى الوضع الاقتصادي: كون الطبقة العاملة مرتبطة مباشرة بأعلى شكل للملكية الاشتراكية ـ ملكية الشعب بأسره. وهي بعد ذلك اكثر الطبقات تنظيما، تملك اكثر خبرة ثورية وصلابة خلقتها عقود من النضال الطبقي، وهي الحامل الصامد لراية الافكار الاجتماعية المتقدمة.

وكان الفلاحون من قبل طبقة منتجين صغار ضعيفي الارتباط فيما بينهم، محكوما عليهم في غالبيتهم

بالخراب والبؤس الدائم. أما فلاحو المجتمع الاشتراكي فهم طبقة لا تعاني من استغلال اصحاب الاطيان، وبرجوازية المدينة والقرية، وتعمل مجتمعة في استثمارات اشتراكية كبيرة، وتستخدم التكنيك الآلي. وقد نمت مداخيل الفلاحين، وثقافتهم، ووعيهم الاجتماعي بشكل لا يقاس.

ومن قبل كانت الفئة العليا من المثقفين تتألف من ممثلي البرجوازية، وتخدم الطبقات المستغلة. أما مثقفو المجتمع الاشتراكي فقد خرجوا من بين العمال والفلاحين، ويخدمون الشغيلة كلهم.

ان الاشتراكية تضع حدا لنظام خضوع طبقات لأخرى. فان جميع طبقات وفئات المجتمع الجديد متساوية في علاقاتها بوسائل الانتاج، والدولة، والسلطة السياسية، وفي حقوقها والتزاماتها. ولا يستطيع أحد أن ينتزع وسائل انتاج، ويستخدمها لاستغلال الآخرين. وترسي في كل ميادين الحياة أسس متينة للمساواة الاجتماعية والعدالة. وكل الطبقات والفئات الاجتماعية ذات الصلات القريبة متراصة في مجموع توحده مصالح ونظرات واهداف مشتركة، ونضال مشترك والعمل من اجل انتصار المجتمع الجديد. ووحدة الشعب الاجتماعية

والسياسية العميقة هي امتياز كبير للمجتمع الاشتراكي على المجتمع الرأسمالي.

ومع ذلك تبقى في عهد الاشتراكية بعض الفروق بين الطبقة العاملة والفلاحين، وكذلك بينهما وبين المثقفين. والفروق بين الطبقة العاملة والفلاحين ترجع، قبل كل شيء، الى وجود شكلين للملكية الاشتراكية: العمال يعملون في المشاريع العائدة للمجتمع كله (تابعة للدولة) والفلاحون يعملون في الاستثمارات التابعة لجماعات منفردة للشغيلة. كما انهم يختلفون ايضا في اساليب، ومقادير اجور العمل: يتقاضى عمال ومستخدمو المشاريع التابعة للدولة اجورا لقاء عملهم وفق نسب ثابتة للدولة، أما أجر عمل الفلاحين فيتوقف على مقادير الدخل العام للكولخوز، ولهذا فان مستوى الاجر في الكولخوزات المختلفة مختلف. وفضلا عن مداخيل الكولخوزات يتلقى الفلاحون مداخيل من استثماراتهم الخاصة الاضافية.

ولا تبقى الفروق الاجتماعية والاقتصادية فقط بل وتبقى الفروق الثقافية والمعيشية بين المدينة والقرية، وكذلك الفروق بين العمل الفكرى والعضلي. وازالة هذه الفروق، وهذا ما يحدث لدن الانتقال

من الاشتراكية الى الشيوعية ستعني القضاء الكلي على الطبقات، وتحقيق المساواة الشاملة والاخوة بين كادحين احرار واعين.

الديموقراطية الاشتراكية

من الديموقراطية البروليتارية لفترة الانتقال من الرأسمالية تنمو الديموقراطية الاشتراكية – وهي طراز تاريخي جديد أعلى لسلطة الشعب. وقد وسعت الاشتراكية فكرة الديموقراطية نفسها بعد أن ادخلت فيها ليس فقط الحقوق السياسية للشغيلة، بل والحقوق الاجتماعية.

ان المجتمع الاشتراكي لا يعلن فقط عن حقوق مواطنيه، بل ويضمن ايضا تحقيق هذه الحقوق. فمثلا يعطي دستور الاتحاد السوفييتي مواطني بلاده الحق في العمل والراحة والتعليم، والتامين المادي عند الشيخوخة، وفي حالة المرض وفقدان المقدرة على العمل. ويضمن القانون الامكانية الفعلية لكل مواطن من أن يستعمل هذه الحقوق؛ ويضمنها النمو المطرد للقوة الاقتصادية للدولة الاشتراكية.

وتعطي دساتير الاقطـار الاشتراكية للمواطنين حرية الكلام والصحافة والاجتماعات وتنظيم المواكب في الشوارع والمظاهرات، وتضمن حق الاتحاد في منظمات اجتماعيـة. وتضمن حرمة الفرد والمسكن، وسريـة المراسلات.

وتتمتع المرأة في الاقطار الاشتراكية بحقوق متساوية مع الرجل في جميع ميادين الحياة العامة والاقتصادية والثقافية والاجتماعية والسياسية. ولها حق متساو مع الرجل في العمل والراحة والتعليم واجرة العمل. وتضمن الدولـة صون مصالح الام والطفل، وتقدم العون المـادي للامهات الكثيرات الاولاد، والوحيدات، وتعطي للمرأة خلال فترة الحمل وبعد الولادة، اجازة طويلة مع الراتب. ففي الاتحاد السوفييتي، مثلا، انشئت شبكة واسعة من دور الولادة، ومستوصفات النساء والاطفال، ودور الحضانة ورياض الاطفـال، وغرف الطعام العامة، ومحلات الغسيل.

ان المهمة الاساسية للدولة الاشتراكية بعد الظفر بالسلطة، وقمع مقاومة المستغلين تنحصر في تنظيم بناء المجتمع الجديد اللاطبقي، وتوسيع العمل الثقافي التربوي بين الشغيلة، وتحقيق تعاون الطبقة العاملة مع الفئات

غير البروليتارية من الشغيلة، ومع الفلاحين قبل غيرهم.
والدولة الاشتراكية تستخدم العنف، ولكن لا تستخدمه ضد الشغيلة، ولكن ضد الطفيليين، والمستغلين، والعناصر الاخرى الخطرة اجتماعيا، أى ضد اقلية ضئيلة من المجتمع. بينما المهمة الرئيسية، جوهر الدولة الاستغلالية هي العنف ازاء الشغيلة، والحفاظ على اسس النظام الجائر. وليس العنف بالنسبة للدولة الاشتراكية رئيسيا، وأهم صفة لها هي تنظيم تعاون الطبقة العاملة والفئات الاخرى من المجتمع لاغراض التحويل الاشتراكي للمجتمع.

دولة الشعب بأسره

بعد أن تحل مهمات الفترة الانتقالية، وتقضى على الطبقات المستغلة، وتبنى الاشتراكية ويتعزز المجتمع الاشتراكي تختفي الظروف التاريخية التي دعت الى ضرورة ديكتاتورية البروليتاريا. وبعد أن تحقق ديكتاتورية البروليتاريا رسالتها التاريخية تتحول الى دولة اشتراكية للشعب بأسره.

وفي ابان ديكتاتورية البروليتاريا نفسها تأخذ بالتكوين صفات دولة الشعب بأسره، ديموقراطية

الشعب بأسره. ومنذ بداية ظهورها تعبر عن المصالح الجذرية، وارادة غالبية الشعب الساحقة ـ شغيلة المدينة والقرية بقيادة الطبقة العاملة. يدير الشغيلة الانتاج والدولة، ويكونون اسياد البلاد، ويبنون حياة تتفق مع مطامحهم وآمانيهم. ان المزيد والمزيد من المنجزات الاشتراكية (انتصار العلاقات الاشتراكية في جميع مجالات الاقتصاد الوطني، والقضاء على الطبقات المستغلة، وتطور الطبقة العاملة نفسها، وتحول الفلاحين من اصحاب ملكية صغار الى طبقة كادحين اشتراكيين، وميلاد مثقفين شعبيين جدد) يعني ايضا تطور دولة ديكتاتورية البروليتاريا كتنظيم الشعب باسره لكادحي المجتمع الاشتراكي.

ان انتصار الاشتراكية التام والنهائي في الاتحاد السوفييتي، انتقال المجتمع السوفييتي الى بناء الشيوعية على نطاق واسع قد أديا الى ظهور دولة الشعب بأسره التي تتساوى فيها جميع الفئات الاجتماعية دون أن تتمتع اية واحدة منها بأية امتيازات في الحقوق.

وتلعب الطبقة العاملة دورا قياديا في المجتمع وكذلك خلال الانتقال من الاشتراكية الى الشيوعية،

ولكن دورها هذا ليس هو ديكتاتورية البروليتاريا. ان دورها القيادي في عهد ديكتاتورية البروليتاريا هو قد عزز بتنظيم الدولة كله. وفي عهد دولة الشعب باسره تؤثر الطبقة العاملة في المجتمع فقط بحكم كونها تشتغل في فرع قيادي من الاقتصاد الوطني – الصناعة، بحكم وعيها العالي وتنظيمها، ومكانتها، ومبادرتها.

ان دولة الشعب باسره الاشتراكية هي دولة تضمحل، أي دولة تتحول بالتدريج الى ادارة ذاتية اجتماعية شيوعية.

حزب الشعب كله

ان الحزب الحاكم في الاتحاد السوفييتي وهو الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي، اسس وتطور كفصيلة طليعية للطبقة العاملة، كشكل اعلى لتنظيمها الطبقي. وهو في الوقت ذاته قد عبر عن المصالح الجذرية لجميع شغيلة البلاد.

في اعوام النضال الثوري والبناء الاشتراكي جذب الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي الى مواقع الطبقة العاملة اغلبية الشعب اولا، ثم الشعب السوفييتي كله.

وتحت قيادة الحزب تم في الاتحاد السوفييتي القضاء على الطبقات المستغلة، واجريت تغيرات جذرية اقتصادية واجتماعية. وأدى النضال المتفاني للطبقة العاملة بقيادة الحزب الى أن جميع الفئات غير البروليتارية من الشغيلة (الفلاحين، والحرفيين، والمثقفين) قد ادركت وحدة مصالحها الجذرية مع مصالح الطبقة العاملة. ان هدف الطبقة العاملة - بناء مجتمع لاطبقي - قد اصبح هدفا لعموم الشعب. واستوعبت جميع فئات الشغيلة نظرية وايديولوجية الحزب، وتصادق كليا وتساند سياسته. فيفعم بقوى جديدة جامعا في صفوفه أحسن من في جماهير الشغيلة. والحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي بتركيبه القومي هو حزب أممي حقا موحد لممثلي أكثر من مائة أمة وقومية تسكن الاتحاد السوفييتي.

وكل هذه الظروف وكذلك حقيقة أن دولة ديكتاتورية البروليتاريا قد تحولت الى دولة الشعب بأسره قد انعكست على طابع الحزب، وعلى دوره في حياة المجتمع. وبنتيجة انتصار الاشتراكية التام والنهائي اصبح الحزب الشيوعي للطبقة العاملة حزب الشعب السوفييتي كله.

الاشتراكية والفرد

اظهرت الاشتراكية العلمية أن التحرير الحقيقي للفرد ممكن فقط بنتيجة الثورة الاشتراكية. ان سيطرة رأسمال انما هي اكبر اهانة على الشخصية الانسانية. ان الفلوس تحل محل جميع الصفات الشخصية للانسان، وتحول العلاقات الانسانية الى حساب نفعي. وتقطع الانظمة الاستغلالية الطريق الى التطور والابداع المستقل امام غالبية الشعب الساحقة. وفي الفئات ذات الامتيازات تطور الرأسمالية الفردية وحب الذات، والانانية والصفات الروحية المعادية للمجتمع التي يخلقها جو الاستغلال، وحب الربح، والصراع الوحشي الفظ من أجل البقاء، ذلك الصراع الملازم للرأسمالية.

ولتحرير الفرد يجب تحرير جمهور الناس كله، بعد تغيير العلاقات الاجتماعية التي تستعبد الانسان. وجوهر حل مشكلة الفرد هو تحرير الفرد عن طريق تحرير جماهير الشغيلة. والمجتمع بتحرير نفسه يحرر كل فرد فيه. والثورة الاشتراكية بقضائها على الملكية الخاصة لوسائل الانتاج تقضي على استعباد جماهير الشغيلة ايضا. وفي الاشتراكية لا يستطيع احد أن يلقي

على الآخرين نصيبه من الاشتراك في العمل الانتاجي. والعمل الانتاجي نفسه، من جهة أخرى، يكف عن أن يكون وسيلة لاستعباد الناس، ويصبح وسيلة لتحريرهم: يتيح المجتمع لكل انسان امكانية التطور واستخدام قابلياته الجسمية والروحية؛ ويتحول العمل أكثر فاكثر من عبء ثقيل الى ابداع؛ الى ينبوع للفرح والمتعة.

والاشتراكية تنهي الصراع القاسي المستمر منذ الأزل بين أناس منفردين وجماعات منفردة من الناس من أجل بقاء فردي منعزل. وبهذا ذاته يخرج الانسان - كما كتب انجلس في مؤلفه الذي ذكرناه آنفا «ضد دوهرينغ» من مملكة الحيوانات وينتقل من الظروف البهمية للبقاء، الى ظروف انسانية حقا.

ان تعارض مصالح الفرد والمجتمع، ذلك التعارض الذي ظهر بظهور الملكية الخاصة يتخلى في عهد الاشتراكية عن محله لتآلف أكثر كمالا فاكثر بين مصالح الفرد والمجتمع. ويتحقق مطمح افراد المجتمع في تحسين وضعهم في العمل الابداعي لخير المجتمع كله. وهذا هو الأساس الموضوعي لوحدة مصالح الفرد والمجتمع، وهي تنعكس في وعي الناس. وتطرد العلاقات الاشتراكية الجديدة مخلفات الرأسمالية في وعي

المواطنين، وتساعد الناس على أن يلقوا عن انفسهم الضعف والعيوب الموروثــة مــن مجتمع المستغلين والنفعيين. ويساعد العمل التربوي الصابر اليومي للحزب، والمنظمات الاجتماعية على تكوين الخصــال الروحية للانسان الجديد.

القوى المحركة
لتطور المجتمع الجديد

سمى ماركس كل تاريخ الانسانية حتى عهد الاشتراكية بما قبل التاريخ؛ ان التاريخ الفعلي للمجتمع يبدأ من انتصار الثورة البروليتارية. وحياة النــاس الاجتماعية خلال ما قبل تاريخ الانسانية كله واجهتهم كشيء مفروض من الخــارج؛ وقد حكمت المجتمع ومصائر اعضائه الفرادى قوى موضوعية ـ قوى غريبة عن الناس. والمجتمع الاشتراكي يستوعب أكثر فاكثر هذه القوى الموضوعية. وبعد أن يعرفها بمساعدة العلم الماركسي-اللينيني يجعلها تحت سيطرته، ويبدأ بخلق تاريخه بوعي تام. وتقوم الانسانية بقفزة من حكم الضرورة، الى حكم الحرية.

قال لينين ملاحظا أهم صفة للاشتراكية حين شرع الشعب السوفييتي ببناء المجتمع الجديد في عام ١٩٢٣:
«الآن حصلنا على فرصة نادرة جدا في التاريخ لأن نحدد المواعيد الضرورية لاحداث التغيرات الاجتماعية الجذرية، ونحن نرى الآن بوضوح **ماذا** يمكن أن نعمل في ظرف خمس سنوات، ولأي شيء تلزم مدد أطول بكثير» *.

ويضع المجتمع الاشتراكي لنفسه عن وعي مهمة ازالة الاشكال الشائخة من الانتاج والعلاقات بين الناس، ويزيلها بالفعل. وهو يخطط في الوقت المناسب التغيرات الاجتماعية والاقتصادية، ويحسب مدد تطور القوى المنتجة، وتغييرات العلاقات الانتاجية.

ويعرف المجتمع الاشتراكي تناقضاته، ولكنها ليست تناقضات متناحرة – انها متعلقة، بصورة رئيسية، بمصاعب النمو، بمصادمات الجديد مع القديم، والمتقدم مع المتخلف. وتحل هذه التناقضات ليس عن طريق النضال الطبقي، لأن في المجتمع الجديد لا توجد طبقات لها مصلحة في المحافظة على الانظمة

* لينين. المؤلفات، المجلد ٣٣، ص‌ص ٤٤١–٤٤٢.

القديمة الشائخة، بل على اساس تعاون جميع الطبقات والفئات التي لها مصلحة متساوية في انتصار الاشكال الجديدة من العلاقات الاجتماعية. والوسيلة الاساسية لكشف وحل التناقضات في عهد الاشتراكية هي النقد والانتقاد الذاتي اللذين يعبئان عقل ملايين عديدة من الشغيلة وطاقتهم ونشاطهم وابداعهم لحل مهمات جديدة وجديدة.

وتنمو قوة المجتمع الاشتراكي باطراد بمقدار تطوره، وتلاحم اعضائه الذين لا تقسمهم تناقضات النظام الاستغلالي غير القابلة للتوفيق. وتظهر وتتعزز قوى محركة جديدة وينابيع للتطور: وحدة المجتمع الفكرية والسياسية؛ الحوافز المعنوية للعمل وادارة المجتمع، وشعور المواطن بأنه سيد البلاد، والوعي بمسؤوليته ازاء القضية العامة، ذلك الوعي الملازم للمجتمع الاشتراكي، والمرتبط بذلك الشعور ارتباطا لا انفصام له؛ والمباراة الاشتراكية كتعاون خلاق للناس، ووسيلة جبارة لتحسين الانتاج؛ وصداقة الأمم الاشتراكية في داخل القطر الواحد وعلى النطاق العالمي؛ والوطنية الاشتراكية ـ الاخلاص للنظام الاشتراكي، واستعداد المواطنين لأن يهبوا للوطن كل قواهم

وقابلياتهم، وحياتهم اذا اقتضت الحاجة؛ وقيادة الحزب الثورى الذي يعبر بأتم طريقة ومن جميع النواحي عن العقل الجماعي، وارادة المجتمع الاشتراكي.

ليست الاشتراكية، ولا يمكن ان تكون لأي مدى مجتمعا ثابتا جامدا، بل هي تتطور باستمرار، وتتحسن وتتقدم الى الامام. والتقدم الى الامام في عهد الاشتراكية يعني التقدم نحو المجتمع الشيوعي اللاطبقي.

والاقطار التي بنيت فيها الاشتراكية تشرع ببناء الشيوعية. وقد دخل الاتحاد السوفييتي اليوم في فترة الانتقال من الاشتراكية الى الشيوعية. وأعلن المؤتمر الثاني والعشرون للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي (١٩٦١) على الملأ أن الجيل الحالي للسوفييتيين سيعيش في عهد الشيوعية.

المجتمع الشيوعي

في برنامج الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي المتخذ في عام ١٩٦١ والذي وضع مهمة بناء المجتمع الشيوعي يقدم التعريف التالي للشيوعية:

«الشيوعية هي نظام اجتماعي لاطبقي تقوم فيه

الملكية الواحدة للشعب باسره على وسائل الانتاج، والمساواة الاجتماعية التامة بين جميع اعضاء المجتمع، حيث، الى جانب تطور الناس من جميع النواحي ستنمو ايضا القوى المنتجة على اساس العلم والتكنيك المتطورين على الدوام، وتتدفق جميع مصادر الثروة الاجتماعية سيلا كاملا، ويتحقق المبدأ العظيم «من كل حسب كفاءاته، ولكل حسب حاجاته». ان الشيوعية انما هي مجتمع عالي التنظيم لكادحين احرار وواعين، سترسخ فيه الادارة الذاتية الاجتماعية، ويغدو فيه العمل لخير المجتمع الحاجة الحيوية الاولى في نظر الجميع، وامرا يدركون ضرورته، وتطبق فيه كفاءات كل فرد بافيد وجه في صالح الشعب».

طابع الانتقال
من الاشتراكية الى الشيوعية

لا تنفصل الاشتراكية والشيوعية بعضها عن بعض بجدار أصم، بل هما طوران لمجتمع واحد ـ المجتمع الشيوعي. وبمقدار ما يصبح المجتمع الاشتراكي أكثر نضوجا تبرز فيه عناصر الشيوعية أكثر، وفي مرحلة معينة يتحول الى مجتمع شيوعي. وفي كل ميدان

من ميادين الحياة الاجتماعية في عهد الاشتراكية توجد أجنة الشيوعية. ومثلما تتكون الزهرة والثمرة على النباتات تنمو الشيوعية من الاشتراكية.

ان الثورة الاشتراكية، والتغيير الثوري الجذري للمجتمع الرأسمالي القائم على الملكية الخاصة، واستغلال الانسان للانسان ضروريتان لتحقيق الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية. والانتقال من الاشتراكية الى الشيوعية هو تطور شكل اجتماعي واحد، وهذا التطور يحدث ليس نتيجة لثورة سياسية، بل عن طريق التطور التدريجي المنهاجي للانتاج الاشتراكي، وترسيخ الاشتراكية، والتطبيق المثابر لمبادئها، واضمحلال القديم وانبثاق الجديد، وتثبيت الصفات الشيوعية الجديدة المتولدة في الحياة.

والاشتراكية طور ضروري في تطور المجتمع في الطريق الى نظام شيوعي لاطبقي. ولا يمكن بناء مجتمع لاطبقي دون المرور بالاشتراكية، وتخطي مرحلة حتمية موضوعيا للتطور. وبعد انتصار الثورة الاشتراكية ينظّم المجتمع حياته بشكل واع، ويخضع لاشرافه أكثر فاكثر القوى الموضوعية متحررا من العفويات، والطاعة العمياء لسير الاحداث. ولكن هذا لا يعني

أن المجتمع يستطيع أن يتصرف وفق حكمه الخاص فقط، مستقلا عن الظروف الموضوعية. انه يخطط الانتاج، ويعرف ما يمكن التوصل اليه خلال مدة معينة، ولكن لا يستطيع ان يبني برامجه على اساس «المشيئة» وحدها دون حسبان احوال وامكانيات الانتاج. وكلما يتقن المجتمع الاشتراكي القوانين الموضوعية أكثر ويزداد وضوح رؤيته للمهمات الواقعية لنشاطه العملي كل ما يؤثر على تطوره بشكل أنجح.

وعلى اساس من الامكانيات الواقعية والتقديرات العلمية حدد في برنامج الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي أن المجتمع الشيوعي في الاتحاد السوفييتي سيبنى بصورة اساسية خلال الاعوام العشرين المقبلة. ويتطلب بناء المجتمع الشيوعي حل ثلاث مهمات اساسية: أولا، انشاء القاعدة المادية التكنيكية للشيوعية؛ ثانيا، تكوين العلاقات الاجتماعية الشيوعية؛ ثالثا، تربية الانسان الجديد - الباني العالي الوعي، ومواطن المجتمع الشيوعي. وهذه المهمات الثلاث مترابطة فيما بينها باحكام. وهي تعبر عن جوانب مختلفة لعملية واحدة، عملية تحول المجتمع الاشتراكي الى مجتمع شيوعي.

القاعدة المادية والتكنيكية للشيوعية

برهنت الاشتراكية العلمية على أن التطور الجبار والشامل للقوى المنتجة هو الشرط الحاسم لتحول الاشتراكية الى الشيوعيـة. ومع تطورهـا ستتحسن علاقـات الانتاج الاشتراكية التي تتحول في مرحلة معينة الى علاقات انتاج شيوعية. ولهذا فان المهمة الرئيسية لفترة الانتقال من الاشتراكية الى الشيوعية هي انشاء القاعدة المادية التكنيكية للشيوعية. فلماذا؟

لأن انشاء هذه القاعدة وحده يتيح:

اولا: بلوغ تطور لا نظير له في القوى المنتجة، وضمان انتاجية عمل أعلى، وتسليح الناس باحدث تكنيك، وتحويل العمل الى مصدر للمسرة والالهام والابداع.

ثانيا: تطوير انتاج الخيرات المادية للتلبية التامة لحاجات الانسان، وضمان أعلى مستوى لحياة السكان، وخلق جميع الظروف للانتقـــال الى التوزيع حسب الحاجات.

ثالثـا: تحويل العلاقـات الاجتماعية الاشتراكية

بالتدريج الى علاقات شيوعية، وانشاء مجتمع لاطبقي، والقضاء على الفروق القائمة بين المدينة والقرية، وبين العمل الفكري والعضلي، وتربية الانسان الجديد.

فماذا يعني انشـــاء القاعدة المادية التكنيكية للشيوعية؟

تجب قبل كل شيء كهربة البلاد كهربة تامة، واتقان التكنيك وتكنولوجية وتنظيم الانتاج الاجتماعي على هذا الاساس في جميع فروع الاقتصاد الوطني. ويخطط الاتحـــاد السوفييتي توليد ٢٧٠٠–٣٠٠٠ مليار كيلواط ساعة من الطاقة الكهربائية في عـام ١٩٨٠، اي حوالى مرة ونصف اكثر مما يولد الآن في جميع اقطار العالم الاخرى مجتمعة.

وبمساعدة الكهربـة يصبح من الممكن تحقيق المكننة المجموعية والاتمتة للانتاج. وتسهل الاتمتة العمل، وتضمن نموا هائلا لانتاجيته، وتغير جذريا طابع العمل نفســـه – وهي تقرب بين العمل العضلي والفكري، وتقود آلى القضـــاء على الفروق الجوهرية القائمة بينهما، والى تقصير الوقت الضروري للعمل.

وتطرح ايضا مهمة الاستخدام الواسع للكيمياء في الاقتصاد الوطني، وتطوير انتاج المواد الاصطناعية،

وبوجه عام، التطوير الشامل للانواع الجديدة من الطاقة والمواد.

ويلعب تطور الصناعة الثقيلة ـ الانتاج الكيميائي، وتوليد الطاقة، وصناعة الوقود، والتعدين، وصناعة الآلات والماكنات، ومعالجة المعادن دورا قياديا في انشـــاء القاعدة المادية التكنيكية للشيوعية. وتعيد الصناعة الثقيلة تسليح جميع فروع الاقتصاد الوطني تكنيكيا: انتاج سلع الاستهلاك، والزراعة، والبناء والنقل، والمواصلات، وكذلك الفروع التي تخدم بشكل مباشر معيشة الناس: التجارة، والتغذية العامة، ووقاية الصحة، والاقتصاد السكني والبلدي. وفي عام ١٩٨٠ سينتج في الاتحاد السوفييتي من الانتاج الصناعي ما يزيد مرتين تقريبا على ما ينتج الآن في جميع الاقطار الرأسمالية. وتنشأ الوفرة الشيوعية ايضـــا بفضل التطور العالي للزراعة. ويهيئ النهوض الجبار للقوى المنتجة للزراعة ايضا ظروفا للانتقال الى العلاقات الاجتماعية الشيوعية في القرية.

ان النمو المطرد لانتاجية العمل ضروري لتحقيق البرنامج الجبار للبناء الشيوعي، ولانشـــاء الخيرات المادية والروحيـة الوفيرة. وستنتصر الشيوعيـة على

الرأسماليـة، مؤمنة انتاجيـة عمل اجتماعي أعلى مستحيلة في النظام الاستغلالي.

وتخلق القاعدة المادية التكنيكية للشيوعية ايضا عن طريق الجمع العضوي بين العلم والانتاج، في ظروف التقدم العلمي التكنيكي السريع المطرد. وقد صنعت بالفعل في الاتحاد السوفييتي المبدعات الكاملة لعقل ويد الانسـان كالمحطـات الكهرذرية، والبواخر ذات المحركات الذرية، والآلات الحاسبة السريعة العمل. ان الاقمار الاصطناعية التي نفذت الى الفضاء الكوني لاول مرة قد صنعت في قطر اشتراكي - الاتحاد السوفييتي. واوائل الذين شقوا طرق الفضاء هم مواطنو مجتمع اشتراكي. والعالم كله يعرف اسم الملاح الكوني الاول يوري غاغارين، والملاحة الكونيـة الاولى فالنتينـا نيقولايفا-تيريشكوفا. ويسعى الاتحاد السوفييتي الى انتصارات علمية جديدة، الى تطبيق منجزات العلم الرفيع التطور في جميع فروع الانتاج.

ان انشاء القاعدة المادية التكنيكية للشيوعية يعني ايضا مستوى ثقافيا تكنيكيا عاليا للشغيلة، وتكوين عاملين من طراز جديد - ذوي وعي عـال، ومعارف علمية عميقة، وافق ثقافي واسع.

رفع المستوى الحياتي للشعب

ان هدف الانتاج في عهد الاشتراكية هو الحد الاقصى من تلبية حاجات الناس المادية والثقافية. ويطرح برنامج الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي المرسوم لمدة ٢٠ عاما مهمة تأمين أعلى مستوى حياتي في البلاد بالقياس الى أي قطر رأسمالي. وتحل هذه المهمة سوية مع انشاء القاعدة المادية التكنيكية للشيوعية، على اساس هذه القاعدة.

في عهد الاشتراكية ضمن بالفعل لجميع المواطنين التعليم المجاني، والخدمة الطبية المجانية، والتشغيل الكامل، والخدمة الثقافية، والتحسين المطرد والتوسيع للتأمين الاجتماعي، وتحسين الظروف السكنية، والبدل المنخفض للسكن وغير ذلك. وفي فترة الانتقال من الاشتراكية الى الشيوعية يجري نهوض مستمر في المستوى الحياتي للشعب، وتخلق الظروف للانتقال الى المبدأ الشيوعي للتوزيع حسب الحاجات، وتزول بالتدريج الفروق في مستوى حياة فئات مختلفة من السكان.

وستنمو المداخيل الفعلية لمواطني الاتحاد

السوفييتي خلال العشرين عاما اكثر من ثلاث مرات ونصف. وسيحدث هذا النمو عن طريق رفع الاجرة الفردية، والغاء الضرائب، وزيادة المدفوعات والمنافع من صناديق الاستهلاك الاجتماعية.

وسيزداد زيادة هائلة انتاج سلع الاستهلاك من جميع الانواع: الاقمشة، والثياب، والاحذية، واجهزة الراديو، والتلفزيون، والثلاجات، واللوازم التكنيكية الاخرى للمعيشة، وما الى ذلك. وستوفر لكل عائلة شقة وافرة المرافق، وينشأ طراز جديد من المساكن، ومظهر جديد للمدن والقرى – «المدن-الجنائن» التي تضم أحسن منجزات حضارة المدينة، والمزايا الطبيعية للحياة الريفية – وفرة الخضرة، والماء، والهواء الطليق.

وسيعمل العمال والمستخدمون ست ساعات في اليوم مع يوم راحة واحد في الاسبوع، أو ٣٥ ساعة عمل في الاسبوع مع يومي راحة. وفي الاعمال تحت الارض والاعمال الاخرى التي توجد فيها ظروف عمل مضرة سيطبق يوم عمل من خمس ساعات أو اسبوع عمل من ٣٠ ساعة وخمسة ايام عمل. وسيتيح نمو انتاجية العمل فيما بعد بتقصير يوم العمل بصورة اكثر.

وتتحرر المرأة من مشاغل كثيرة للحياة المنزلية؛ تحصل العوائل على آلات واجهزة منزليـــة حديثة، ويحتل نظام التغذية العامة مكانا مهما، وتتحسن كامل الخدمة المعيشية للمواطنين مرات عديدة.

وفي فترة الانتقال من الاشتراكية الى الشيوعية ستبقى الاجـرة حسب كمية ونوعية العمل المصدر الاساسي لتلبية حاجات الناس المادية والثقافية. وهذا يتطلبه ليس فقط مستوى تطور الانتاج بل ومستوى وعي افراد المجتمع، وضرورة الحافز المادي للعمل. وفي نفس الوقت ستخفف الفروق في الاجور بالتدريج: ليس عن طريق التطبيق المصطنع للتسوية بينها، بل بنتيجة اكتساب العمل بتطور المكننة والاتمتة كفاءة اكثر فاكثر.

وفي نفس الوقت ستنمـــو صناديق الاستهلاك الاجتماعية بوتيرات اكثر سرعة بالقياس الى وتيرات زيادة اجرة العمل الفردية، وفى نهاية العشرين عامـا سيؤلف نصيبها نصف جميع مبالغ المداخيل الفعلية للسكان.

ولنذكر بعض الحاجات التي يأخذها المجتمع على عاتقه:

– اعالة الاطفال في دور الحضانة ورياض الاطفال والمدارس الداخلية، وتقديم الافطار الساخنة مجانا، وتطويل اليوم المدرسي مع تقديم وجبات الغذاء المجانية، التامين المجاني للالبسة المدرسية، واللوازم الدراسية؛ القيام بتجهيز جميع المدارس بالورش الدراسية، والحجرات العلمية والمختبرات، وقاعات التمارين الرياضية، والبلدات الرياضية، وخلق الظروف للابداع الفني للاطفال، وممارسة الموسيقى، والرسم والنحت.

– التامين المادي للعاجزين عن العمل، وانشاء شبكة واسعة من الدور الحسنة التجهيز لاعالة الشيوخ والعجزة مجانا.

– الاستعمال المجاني للمساكن والخدمات البلدية.

– الاستعمال المجاني للنقل البلدي.

– الانتقال التدريجي الى التغذية العامة المجانية (وجبات الغذاء) في المشاريع والمؤسسات وكذلك في الكولخوزات.

وبهذه الطريقة سيسد المجتمع في نهاية فترة العشرين عاما نصف حاجات الشعب مجانا على اسس المساواة العامة. وهذه الحاجات، بصورة رئيسية،

ليست فردية (ملابس، واحذية، الخ.) بل حاجات عامة يستخدمها الناس جماعيا وسوية مع الآخرين، وفضلا عن ذلك سيجعل نمو الاجرة الفردية للعمل حتى تلك الخيرات المادية التي تظل بأجور، تحت متناول الجميع. ومن ذلك الحين لن تبقى الا خطوة واحدة حتى التوزيع المجاني الشيوعي لجميع الخيرات والخدمات.

العمل في عهد الشيوعية

سيصبح العمل في عهد الشيوعية ينبوعا لجميع القيم ولجميع ثروات الانسانيـة. وتثبت الشيوعيـة واجب جميع افراد المجتمع في العمل وفق قابلياتهم. وهذا هو واجب افراد المجتمع في عهد الاشتراكية ايضا. الا أن طابع العمل في عهد الشيوعية يتغيـّر، ويقل عناؤه، ويقصر يوم العمل، وهذا يجعل المساهمة في الانتاج لكل انسان عملا جذابا ممتعا. وفي هذه الظروف يتحول العمل الى حاجة حيوية اولى للانسان. وهذا سيكون، كما وصف لينين، «عملا حسب العادة ان يعمل للمنفعة العامة، وحسب موقف واع (تحول

الى العادة) نحو ضرورة العمل للمنفعة العامة، العمل كحاجة للعضو الحي الصحي» *.

وفي الانتاج الشيوعي سينفذ كل عامل سواء حسب الكفاءة وحسب طابع العمل، عملا ينفذه في انتاج اليوم المهندسون والتكنيكيون.

وستحتل اوقات العمل ٢٠-٢٥ ساعة في الاسبوع (اى حوالى ٤-٥ ساعات في اليوم) واقل فيما بعد. وسيلغي التقسيم القديم للعمل، وهذا يعني أن كل انسان سيستطيع ان يختار لنفسه العمل الذي يستجيب أكثر من غيره لقابلياته وميوله، ويمارس شغله المحبوب، ويستطيع متى شاء أن يغير عمله. وسيكون في امكان جميع المواهب والقابليات الكامنة في الناس أن تلقى تطورا واستخداما تامين. وتقصير يوم العمل ضرورة للعملية الانتاجية نفسها في عهد الاشتراكية والشيوعية، لأن المستوى العالي للانتاج يتطلب أن يرفع العاملون كفاءتهم باستمرار، ويتطورون من كل الجوانب وسيكون لانسان المجتمع الشيوعي الكثير من الوقت المتحرر من العمل الانتاجي،

---

* لينين. المؤلفات، المجلد ٣٠، ص ٤٨٢.

ولكنه لن يقضيه في الكسل والفراغ. بل سيكون ذلك تناوبا معقولا متقنا للراحة الثقافية، ولممارسة العلم والفن، والثقافة البدنية، والرياضة، وللاشتراك في قضايا الادارة الذاتية الاجتماعية. والانسان وهو يعمل لا يصبح يفكر باجره لأن جميع مشاغل تلبية حاجاته سيأخذها المجتمع على عاتقه. ان العمل في المجتمع الجديد محاط بارفع احترام، وهو في عيون المحيطين به المعيار الرئيسي لفضيلة الانسان.

لكل حسب حاجاته

ان الاشتراكية تهيئ لتحقيق المبدأ الاساسي للشيوعية «من كل حسب كفاءاته، ولكل حسب حاجاته». وللانتقال الى التوزيع حسب الحاجات من الضروري، قبل كل شيء، خلق وفرة الخيرات المادية. كما من المهم ايضا رفع ثقافة ووعي الناس الى تلك الدرجة التي سيعمل فيها كل انسان باقصى مدى من القوى والكفاءات، ولا يأخذ الا ما هو ضروري له حقا لتلبية معقولة لحاجاته.

ويساعد مبدأ التوزيع حسب العمل النافذ المفعول في عهد الاشتراكية على خلق جميع المقدمات الضرورية للانتقال الى المبدأ الشيوعي للتوزيع. وهو يساعد على نمو انتاجية العمل، وزيادة الثروة الاجتماعية، ويحث العاملين على رفع مستواهم الثقافي والتكنيكي. ويخلق التوزيع حسب العمل في جميع افراد المجتمع عادة العمل وفق الكفاءات. ثم ان الجمع بين الاجرة الفردية وفق كمية العمل ونوعيته وبين صناديق الاستهلاك الاجتماعية سيدفع بالمجتمع أقرب فاقرب نحو الشيوعية. وستنمو الصناديق الاجتماعية المخصصة لتلبية حاجات افراد المجتمع مجانا، وتحتل مجالا اوسع فأوسع. وسياتي زمن يستنفد فيه مبدأ التوزيع حسب العمل نفسه اقتصاديا، وتحل وفرة من الخيرات المادية والثقافية، ويتحول العمل الى حاجة حيوية اولى لجميع افراد المجتمع، وتزول ضرورة الحافز المادي للعاملين.

عند ذلك يصبح التوزيع حسب الحاجات ضرورة اقتصادية. ومثل هذا التوزيع بالذات يستطيع أكثر من كل شيء أن يعمل على تطوير الانتاج، وعلى التقدم السريع للمجتمع كله، لأنه «يتيح لجميع افراد

المجتمع أن يتطوروا تطورا شاملا باقصى ما يمكن من الشمول، وأن يلتزموا قابلياتهم، ويظهروها » (انجلس).
وسيكون المجتمع الشيوعي غنيا بشكل يكفي ليس فقط لأن يؤمن بسخاء جميع حاجات المواطنين من اللباس والمسكن وغيرهما من الحاجات الاولية، بل ولأن يقدم كل ما يحتاجه الانسان المتطور المثقف للحياة المتمدنة الدافقة بالحيوية. وللانسان احتياجات غير كثيرة جدا تلبى بطريقة فردية. وستكسب الاحتياجات التي تتطلب بطبيعتها أن تلبى بطريقة جماعية أهمية كبيرة.

وسيتحرر الناس كليا والى الابد من اعتبارات الاجر والدخل والحسبة، ومن الجشع وحب الربح، ومن الركض وراء المنفعة المادية. وستصبح الفلوس غير ضرورية. وهذا يؤدي الى معافاة نفسية الناس جميعا. ويحصل الانسان، اخيرا، على امكانية تكريس نفسه للمصالح العليا التي ستبرز في المقدمة منها المصالح الاجتماعية. وستنمو الحاجات باستمرار ولكنها ستكون حاجات صحية معقولة لانسان متطور من كل الجوانب، وسيجد النظام الشيوعي بايجاده لحاجات انسانية جديدة طرقا لتلبيتها.

الملكية الشيوعية

في عهد الشيوعية ستكون الملكية لوسائل الانتاج ولجميع انتاج الصناعة والزراعة ذات شكل واحد: **الملكية الشيوعية للشعب بأسره**. فان شكلي الملكية الاجتماعية اللذين كانا قائمين في عهد الاشتراكية - ملكية الدولة والملكية التعاونية (الكولخوزية التعاونية في الاتحاد السوفييتي) سيصلان الى مستوى من التطور بحيث يندمجان في ملكيــة شيوعيــة واحدة. وتقدم المدينة الاشتراكية مساعدة مطردة باتساعها الى القرية التعاونية، وتنمو الصلة بينهما باستمرار في النشاط الانتاجي والثقافي والسياسي، ويتعزز ويتسع التعاون والمعونة المتبادلة بين العمال والفلاحين. وتذلل الفروق الاجتماعيــة والاقتصادية والثقافيــة والمعيشيــة بين المدينة والقرية، وينمو تجهيز الزراعة بالطاقة والتكنيك، وينمو انتاج الزراعة وتربية المواشي ويصبح مستقلا اكثر فاكثر عن الظروف الطبيعيــة. وكل ذلك يعني الارتفاع التدريجي بالشكل التعاوني للملكية الى مستوى الملكية للشعب بأسره.

ان تحول الملكية الاشتراكية الى الملكية الشيوعية

يعبر ايضا عن أن مساهمة الشغيلة في آدارة الانتاج والملكية للشعب بأسره تصبح نشيطة ونافعة اكثر فاكثر.

وستكون الملكيـة الشيوعية تجسيمـا لوفرة الخيرات المادية المبذولة لجميع اعضاء المجتمع على درجة متساوية. ولن تكون بعد الآن مرتبطة بالعلاقات البضاعية النقدية. وستعني ليس فقط العلاقة المتساوية لجميع اعضاء المجتمع بوسائل الانتاج بصفتهم اصحابها المشتركين، بل وتعني ايضا آمكانيات متساوية للجميع لتحقيق هذه المساواة نتيجة للتغلب على بقايا الفروق الاجتماعية في العمل (بين العمل الفكري والعضلي، بين العمل الزراعي والصناعي، والعمل الكفوء وغير الكفوء) وكذلك الفروق في المستوى الثقافي والتكنيكي، في ظروف حياة الشغيلة.

وستشمل الملكية الشخصية في عهد الشيوعية دائرة محدودة من اللوازم التي تستعمل فرديا، والتي لا يمكن أن تكون عامة بسبب من طبيعتها ذاتها (مثل الثياب والاحذية ولوازم التواليت الخاص بكل فرد، الخ.). وستكون تحت تصرف آعضاء المجتمع صناديق اجتماعية لا تنفد تلبى منها كليا حاجات الناس المادية والروحية المتنامية.

ان ملكية الشعب بأسره الواحدة لوسائل الانتاج ستكون الاساس الاقتصادي للمجتمع اللاطبقي، فلا يبقى هناك سبب لبقاء اي أثر للتقسيم الطبقي.

في المجتمع الاشتراكي لا توجد طبقات مستغلة. ولكن القضاء التام على الطبقات يقتضي ليس فقط الغاء الملكية الخاصة، بل يقتضي ايضا ازالة الفروق بين المدينة والقرية، وكذلك الفروق بين العمل العضلي والفكري.

وبذلك سيبلغ الهدف النهائي لكفاح الطبقة العاملة التاريخي العالمي – ازالة الطبقات، وانشاء مجتمع للمساواة التامة.

وفي فترة الانتقال من الاشتراكية الى الشيوعية تجري ازالة تدريجية للفروق بين الطبقة العاملة والفلاحين على اساس تقريب شكلي الملكية الاشتراكية (وثم دمجهما). ويرتفع المستوى الثقافي التكنيكي للعمال والفلاحين بانتظام، وهذا يؤدي الى محو الحدود بين الطبقة العاملة، والفلاحين والمثقفين. ويتحقق التجانس

الاجتماعي للمجتمع الجديد اكثر فاكثر. وتتحول وحدة المجتمع الاشتراكي الذي توجد فيه بقايا الفروق الطبقية، الى وحدة اكثر متانة ومناعة لمجتمع بلا طبقات. ولا يبقى في عهد الشيوعية الا منتجون ـ عاملون لا توجد بينهم أية فروق اجتماعية.

وهكذا ستتحقق المساواة الفعلية العامة بين الناس. وسيكون لكل فرد في المجتمع بغض النظر عن مساهمته في الانتاج الاجتماعي امكانية متساوية مع الجميع للعمل لصالح المجتمع وفق كفاءاته، والاستفادة من جميع خيرات الحياة، والمساهمة في حل القضايا العامة، والاسترشاد في حرية بوعيه للواجب الاجتماعي، والتطور كفرد. وكل هذه الامكانيات للمساواة الفعلية للجميع ولكل فرد لن تكون محدودة. لقد كتب ماركس انه في عهد الشيوعية «حتى **الفروق** في النشاط والعمل لا تجلب وراءها أي **تفاوت**، ولا أي **امتياز** بمعنى التملك والاستهلاك» *.

---

* ماركس وانجلس. المؤلفات، المجلد ٣، ص ٥٤٢.

الادارة الذاتية
في عهد الشيوعية

دلل واضعو الاشتراكية العلمية على أن الدولة في عهد الشيوعية تضمحل حتما. وتصبح دولة الشغيلة أكثر فأكثر ممثلة لجميع المجتمع، وللشعب بأسره. ومع انتصار الثورة الاشتراكية، وتحطيم المستغلين، ومع تعزيز الاشتراكية تتغير وظائف الدولة اكثر فاكثر. وفي المجتمع الاشتراكي لا توجد تناقضات غير قابلة للتوفيق من شانها أن تثير الاصطدامات بين الطبقات المختلفة، ولا وجود لسيادة طبقة على طبقة آخرى. وحين يتحقق في المجتمع مبدأ «من كل حسب كفاءاته، ولكل حسب حاجاته» يمكن أن تزول الدولة كليا. ولن تكون ثمة حاجة للرقابة على مقياس العمل، ومقياس الحاجة اذ ان الناس يتعودون على مراعاة القواعد الاساسية للحياة الجديدة، وسيصبح عملهم عالي الانتاجية، وسيعملون بطوعية وفق كفاءاتهم، أما التوزيع فلا يحتاج الى اي تحديد للنسب؛ فان كل شخص سيأخذ حسب حاجاته بحرية.

وسيكون المجتمع الشيوعي عالي التنظيم منسّقا

بالتعاون بين اناس العمل. ويتطلب المستوى العالي للانتاج والعلم والتكنيك توزيعا للعمل منهجيا منتظما بين مختلف فروع الانتاج، وكذلك تنظيم القيادة العامة للانتاج. ولكن هذا لن يكون ادارة الناس بل «ادارة الاشياء»، ولا تعود منظمات الدولة ولا المنظمات السياسية، تمارس هذه الادارة بل المنظمات الاجتماعية، وتزول أية ضرورة للاكراه، يعني لجهاز خاص للاكراه، ولقواعد قانونية معززة بصورة خاصة بتشريع، ومحفوظة من قبل هيئات للقضاء والتأديب.

واساس تنظيم المجتمع الاشتراكي هو التعاون الحر لافراده الذي تنتصر فيه كليا حرية الانسان. وتصبح التربية والاقناع الاسلوبين الوحيدين لتنسيق حياة المجتمع. وتصبح مراعاة المصالح والقواعد الاجتماعية للحياة المشتركة عادة بالنسبة لاناس الشيوعية.

وتنمو الادارة الذاتية الاجتماعية للشيوعية من الديموقراطية الاشتراكية. وينجذب جميع المواطنين الى ادارة شؤون البلاد، والبناء الاقتصادي والثقافي. وستنتقل وظائف الدولة بالتدريج الى ادارة المنظمات الاجتماعية، وهيئات الادارة الذاتية الاجتماعية.

في عهد الشيوعية تصبح المساهمة الفعالة في العمل المفيد اجتماعيا، والموقف اليقظ من الملكية الاجتماعية، والمراعاة الشديدة لقوآعد المجتمع الانساني، والنزاهة والضبط عادة وواجبا قلبيا لجميع اعضاء المجتمع.

ومع ذلك فان تربية الانسان الجديد عملية معقدة وطويلة. فان وعي الناس يتاخر عن ظروف حياتهم، عن الكيان الاجتماعي. ويحتاج الى زمن غير قصير للتغلب على بقايا الرأسمالية في وعي جميع الناس، وتغيير العادات والاخلاق التي خلقتها في ملايين الناس قرون من الزمن. وفي عملية العمل، وفي بناء المجتمع الجديد، وفي النشاط الاجتماعي المتعدد الجوانب يجري ليس فقط انشاء قاعدة مادية تكنيكية، بل وتربية جماهيرية لاناس جدد، وتنقية من بقايا القديم. فليست العوامل الموضوعية وحدها تؤثر في وعي الناس، بل ان للعوامل الذاتية أهمية كبيرة ايضا. ومن المستحيل تكوين الانسان الجديد دون عمل تربوي واضح الهدف مثابر منتظم يقوم به الحزب الثوري. انه يربي بناة

الاشتراكية، ويعدهم الى الحيـــاة في عهد الشيوعية، ويجذب الى العمل التربوي عددا متزايداً من اعضاء المجتمع، ويستخدم في هذا النشاط التأثير المعنوي ومكانة الجزء الطليعي في المجتمع.

الشيوعية والفرد

من اهداف الشيوعية ضمان الحرية التامة لتطور الفرد الانساني، وتكوين انســـان جديد يجتمع فيه بانسجام العمل الخلاق، والنشاط الاجتماعي، والغنى الروحي، والصفاء الخلقي، والتربية الادبية، والكمال الجسدي. ان تطور الانسان من كل الجوانب هو ضرورة موضوعية للشيوعية وقانونها. فان الانسان المتطور من كل الجوانب وحده يستطيع تحقيق انتاج المجتمع المقبل، ويساهم في حياته الروحية، في الادارة الذاتية الاجتماعية.

ان التأمين الشامل، ونظام الوقاية والصحة البالغ حد الكمال، ونمط الحياة المعقول تؤمن الصحة وطول العمر، والحيوية الجسدية والمقدرة على العمل للانسان. ويحرر التوزيع الشيوعي الناس من مشاغل الخبز اليومي والرفاهية الشخصية، ومن التهالك العبودي على

الاشياء. وستنقى العلاقات بين الناس، بما في ذلك العلاقات العائلية من الاعتبارات المادية نهائيا، وستبنى كليا على الشعور المتبادل، والتآلف الاعمق، والصداقة والحب. وستكون لكل انسان امكانية لا حدود لها لاظهار قابلياته واستخدامها، لتحسينها الدائم. وستتمتع الانسانية بالحياة، وتغترف من مسراتها حتى الكفاية. وهكذا يتحقق الحلم العظيم لجميع الاجيال الانسانية في الوفرة العامة، وفي الحرية والمساواة، وفي السلام، والاخوة والتعاون بين الناس.

* * *

ان الرأسمالية والاستعمار هما أمس الانسانية. وقد اصبحت الاشتراكية في عصرنا اعظم قوة، ومجتمعا واقعيا أقيم على رحاب شاسعة من الكرة الارضية. وتكسب افكار الاشتراكية العلمية الى جانبها ملايين وملايين جديدة من الناس في جميع القارات.

ووحدة جميع القوى الثورية - لاقطار الاسرة الاشتراكية، وشعوب آسيا وافريقيا واميركا اللاتينية، والطبقة العاملة والشغيلة في جميع الاقطار، الوحدة تحت

راية الماركسية-اللينينية، وجزئها المكون، الاشتراكية العلمية هي ضمان النصر في الكفاح ضد الاستعمار.

والعالم الجديد لا يتحقق من تلقاء نفسه. انه يولد في العذابات الشديدة، في الكفاح القاسي ضد قوى القديم. ولكن القوى الجالبة للعالم التجديد الثوري لا تغلب. وسينزل النظام الاستغلالي من على مسرح التاريخ. وما من احد قادر على تغيير او الغاء ذلك. وكل الاقطـار وكل الشعوب ستصل الى الاشتراكية بحتمية كحتمية تغير فصول السنة، وحلول النهار في اعقاب الليل.

محتويات

Л. М. МИНАЕВ

ВОЗНИКНОВЕНИЕ И ПРИНЦИПЫ НАУЧНОГО СОЦИАЛИЗМА

На арабском языке

Bibliotheca Alexandrina
0622477